لماذا يخافون الإسلام ؟!



دكتور
عبد الودود شلبي

دار الاعتصام



دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع

٨ شارع حسين حجازى ـ القاهرة

هاتف : ٣٥٥١٧٤٨ ـ ٣٥٤٤٧٤٨ ـ فاكس : ٣٥٤٦٠٣١

ص.ب : ٤٧٠ القاهرة ـ الرمز البريدى ١١٥١١

دكتور
عبد الودود شلبى

لماذا يخافون الإسلام ؟!

حوار مع طلبة وطالبات الدراسات العليا فى
كلية الحقوق بجامعة سيدنى فى إستراليا

دار الاعتصام


بسم الله الرحمن الرحيم
﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ
فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾
[سورة الأنبياء : ١٨]

الإسلام .. وحده ..

هو الدين الذى يسمح لغير المسلمين بحرية

الاعتقاد .. وبالمساواة فى

الحياة ..

والعمل ..

وفي التعايش بين مختلف الأجناس والأديان

.. والملل !! .

جوته
الشاعر الألمانى
الفيلسوف

لماذا كل هذا الخوف من الإسلام ؟!

حوار مع طلبة وطالبات

كلية الحقوق - جامعة سيدنى

استراليا

محمد يتهيأ للعودة !!

فى الولايات المتحدة الأمريكية ، منذ أكثر من سبعين عاماً نشرت مجلة « التاريخ الجارى » The Current History Magazine مقالاً تحت هذا العنوان .. تقول فيه :

« فى جزائر الفيلبين ، وفى الجامعات المصرية ، وفى قصور ملوك الشرق وخيام التتر ، وفى البرلمان اليوغسلافى ، وبين أكواخ الزنوج عند الشاطئ الذهبى فى آجام أفريقيا ، وفى صحارى آسيا .. يترقب المسلمون كل يوم .. بل كل ساعة مطلع (المهدى) الذى يتجسد فيه محمد عليه السلام ، وقد تيقظت قوى الإسلام واتخذت لها شكلاً سوياً فى عالم السياسة ، ولاتزال (التعاليم المحمدية) سارية منتشرة بين الشعوب الملونة التى تجد فى هذه التعاليم ما لا تجده فى المسيحية .. أو اليهودية ، وهناك عامل آخر من عوامل هذه الحركة وهو إخصاب الشعوب الإسلامية وتوالدها فى الوقت الذى أصيبت فيه الشعوب البيضاء بالعقم وقلة النسل .. بينما يتوالد المسلمون كالأرانب !!

وفى الولايات المتحدة أيضاً ومنذ حوالى ربع قرن .. نشرت صحيفة نيويورك تايمز (The new York Times) [(١)] وفى صدر صفحتها الأولى وتحت عنوان : « المسلمون السود يزحفون على واشنطن » هذا المقال الذى ننقل بعض فقراته بالحرف :

وصل مالكولم إكس اليوم ليتولى قيادة المسلمين فى عاصمة الدولة حيث توترت العلاقات العنصرية بصورة تدعو للقلق .

ولقد صرح مالكولم إكس بأنه سيظل القائد للحركة فى مدينة

---

(١) فى يوم ١٠ / ٥ / ١٩٦٣م .

نيويورك ، وسيحتفظ بمسكنه فى واشنطن ، وقد أعفى القائد المحلى للحركة من أعباء وظيفته بسبب فشله فى الاستفادة من الفرص السانحة لتوسيع الحركة فى واشنطن .

وصف « مالكولم إكس » العلاقات العنصرية فى الولايات المتحدة بأنها تنذر بالانفجار ، وقال إنه مالم تعمل أغلبية البيض بسرعة على منح الحقوق السياسية الكاملة للزنوج فإن الوضع قد يؤدى إلى إراقة الدماء .

إن البيض لا يفتحون الباب للسود أبداً ، وعلى السود الاعتماد التام على أنفسهم ، وعليهم أن ينهضوا لتحسين كافة أحوالهم الإنسانية .

وقال قائد المسلمين السود : (إن الزنوج فى هذه البلاد قد فقدوا الأمل فى الرؤساء ، ويئسوا من إصرار البيض على عدم منحهم لحقوقهم المشروعة) .

وقال « مالكولم إكس » : إنه ينوى الإشراف على كل الاجتماعات الجماهيرية للسود التى تعقد فى أمسيات الأحد بواشنطن ، وقال إنه يمنع البيض من حضور هذه الاجتماعات ، ليستطيع السود مناقشة مشاكلهم بصراحة تامة وبدون أى خوف ، وبذلك يتوصلون إلى النتائج المطلوبة ، وقال : إن ٥٤ ٪ من سكان المدينة من الزنوج .

وقال إن حل أزمة الزنوج فى واشنطن هو فى اعتناقهم للإسلام [دين المسلمين] إن المسيحية هى دين الرجل الأبيض وهى دائماً تركز اهتمامها بالدور الذى يلعبه الرجل الأبيض .. أما الإسلام فلا يعترف بالألوان ، ولكنه يعترف فقط بالشخصية الإنسانية .

وفى مناقشته للنسبة العالية للجريمة فى أوساط الزنوج ، قال :

إن الظروف التى خلقها البيض هى السبب فى ذلك .. إن كل منظمات الإجرام فى تجارة المخدرات ، والرقيق الأبيض ، والميسر يديرها البيض .. إنك لن تجد زنجياً واحداً يحتل منصباً كبيراً فى هذه المنظمات ..

إن الزنوج لا يملكون السفن والطائرات التى تستخدم فى تهريب المخدرات إلى هذه البلاد .. إن الزنوج هم فى الواقع من ضحايا المجرمين البيض .

إن قادة التنظيمات الزنجية المعروفة قد فشلوا فشلاً ذريعاً ، وذلك قياساً بالنتائج التى تحصل عليها السود فى مطالبتهم بالحقوق المدنية .

إننا نحن المسلمين السود لا نتكلم كثيراً ، ولكن نفضل أن يحكم علينا الناس بأعمالنا .

إننا لا نبشر بالبغض والعنف .. ولكننا نؤمن بأنه إذا هاجم كلب له أربع أرجل أو رجلان أحد السود فينبغى أن يقتل الكلب !!

فمن هو مالكولم إكس ؟

لقد ولد مالكولم إكس فى قلب المجتمع الأمريكى حيث يعتبر الزنجى الأسود مخلوقاً منحطاً لا قيمة له ، وقضى أكثر طفولته خادماً لأسر أمريكية من البيض ، وتلقى تعليمه الابتدائى فى مدرسة للبيض فى مدينة (مايسون) بولاية ميتشجان ، ولكن معاملة البيض له زرعت فى نفسه بذور الحذر منهم ، وعدم الثقة بهم منذ حداثة سنه .

فقد سأله مدرس اللغة الإنجليزية مرة عن نوع المهنة التى يرغب فى مزاولتها فى المستقبل : .. فأجاب مالكولم إكس :

المحاماة .. إلا إن مدرسه نصحه بالعدول عن الفكرة والاتجاه نحو تعلم التجارة ومزاولتها .. هذا مع أنه كان دائماً أحد الثلاثة الأوائل فى فصله .

وقد بلغ نشاط مالكولم إكس ذروته بعد عودته من الحج ، وكانت طفرة شاسعة تلك التى نقلت الفتى المتشرد الذى سار شوطاً واسعاً فى طريق الإجرام ، وجعلت منه ذلك الإنسان العملاق الداعية إلى الخير والهدى ،

---

(١) انظر فى هذا : الكتاب مالكولم إكس . Malkolm . X تأليف إليكس هيلى Alex Haley مؤلف قصة «الجذور» Roots .

والطريق المستقيم .. نعم إنها لطفرة واسعة تلك التى وصلت بمالكوم إكس إلى أن يكون تلميذاً من تلامذة معلم الخير ﷺ وأن يكون داعية إلى الله على بصيرة وهدى من الله .. وفى فبراير ١٩٦٥م وقف مالكولم إكس ليخطب داعياً إلى الله .. فإذا بالرصاص ينهال عليه ويخر مالكولم شهيداً فى سبيل الله [١] .

أما عن الإسلام كما يتصورونه الآن فى بريطانيا وغيرها من أقطار الغرب .. فإن هناك هلعاً وفزعاً من هذه الصورة وهذا التصور.

لقد تصوروا صورة الكنائس بعد أن خلعت منها الصلبان ليحل محلها الهلال .. وتصوروا المذبح بعد أن تحول إلى قبلة فى اتجاه مكة إلى الشرق ، وتصوروا الإبل ورغاؤها يجلجل فى ركن الخطباء بحديقة هايد بارك Hyed Park . ولم تتخلف صحيفة واحدة عن هذه الحملة الصليبية بدءاً من التايمز The times وانتهاءً بالصنداى تليجراف The Sunday Telegraph،وقد نشرت هذه الأخيرة أى الصنداى تلجراف مقالاً تقول فيه تحت هذا العنوان تقول :

« مواجهة الخطر الإسلامى [١] Meeting the Islamic Threat »

لم يحدث فى تاريخ البشرية كله أن حقق رد الفعل الدينى ثمرات هائلة من هذا القبيل ، إذ يبدو أن الدول العربية توشك أن ترث العالم كله دون أن تحتاج إلى الأخذ بشئ من المبادئ والأساليب التى يفترض أنها تحقق التقدم (مثل الجدية والعمل الدائب والتعليم والديمقراطية والمنهج الحر) أو التخلى عن المبادئ والأساليب التى يفترض أنها تعيق التقدم (مثل الغموض الدينى والقسوة والقمع والفساد والكسل ... إلخ) .

ولهذا فإن الناس فى بعض الدول العربية قد أخذوا يجددون إيمانهم بالإسلام وذلك بسبب الآلام التى تعرضوا لها بعد ردتهم عنه ، أما فى

---

(١) العدد الصادر يوم ١٧ ديسمبر ١٩٧٨م ص ١٨ .

بعض البلاد العربية الأخرى فإن الناس أخذوا يعمقون إيمانهم بالإسلام بسبب الخيرات التى عادت عليهم من التمسك به .. إلا أن الشئ الذى يشترك فيه الفريقان هو أنهما يحتقران الأوثان الغربية التى باتت فى أعينهم مصدراً للعجز والتفسخ .

ومن نافلة القول أن هذا الانطباع عن قوة الإسلام وعجز الغرب ما هو إلا وهم خالص ، فلو أن الغرب أراد أن يستعمل قوته الاقتصادية ، فضلاً عن قوته العسكرية لاستطاع أن يحطم المسلمين دون أية صعوبة ، إلا أن شعور الغرب بالإثم - أى شعور ما بعد الاستعمار فى أوربا وما بعد فيتنام فى الولايات المتحدة - شعور من القوة بحيث يجعل الغرب يحجم عن استخدام قوته هذه ، وبذلك يشجع المسلمين على تجديد إيمانهم بأنفسهم وبمصيرهم ؟!!

وإلى أن يتم أولاً فهم هذا الاندفاع الإسلامى الجديد فى إطار الدوافع الراسخة التى تقوم من ورائه فإنه لايمكن إيجاد الحلول الصحيحة والمناسبة ، ولابد أن يكون من بين هذه الحلول إمكان استخدام القوة المسلحة ، فتشجيع الانطلاقة الإسلامية الجديدة على تصور أنها تستطيع أن تشن طرازاً جديداً من الجهاد دون أن يقابل عنفها بعنف من جانبنا يعنى فى الواقع الحكم على العالم النصرانى بمصير مهين على نفسه قدر ما يستحقه !!

أما فى فرنسا فقد نشرت جريدة Le Mondاللوموند سلسلة من المقالات المثيرة تحت عنوان « ألف مليون مسلم يستعدون للموت فى سبيل الله » وفى واحد من هذه المقالات تقول صحيفة اللوموند :

بعد انتهاء الحرب العالمية صحا الإسلام من نوم دام ألف عام حيث يبدأ الإسلام فى الانتقام .. فبعد جهاد كبير لتحرير أنفسهم من الاستعمار أصبح المسلمون أحراراً فى أوطانهم ، ولو استبعدنا إسرائيل التى تعد كجزيرة وسط ملايين العرب مع القليل من المسيحيين اللبنانيين يمكن أن نقول إن

الشرق الأوسط - من طهران للقاهرة ومن كابول للخرطوم - يُكَوِن محيطاً إسلامياً حقيقياً أى أكثر من ١٠٠٠ مليون من المسلمين .

فالإسلام يقوم حالياً بعملية إبهار وصلت به إلى درجة التأثير على شخصيات أوربية مرموقة فكرياً دخلت الإسلام ، منهم مصمم الباليه المعروف موريس بيجار ، وميشيل شركيوفتس المثقف البولندى الأصل ، وصاحب دار نشر معروفة فى فرنسا ، ومترجم الخواطر الروحية للمجاهد المغربى عبد القادر ، فضلاً عن دخول الأستاذ الجامعى فانش مونتى الذى كتب عدداً من الكتب عن الإسلام والفيلسوف روجيه جارودى الذى ظل فترة طويلة من أنصار ماركس ، وعالم التاريخ الكبير بيبربنوا ميشان الذى كتب تاريخ حياة ابن مسعود .

أما فى ألمانيا الغربية .. فقد نشرت مجلة « ديرشبيجل » الشهيرة سلسلة من المقالات تحت عنوان « القرآن وحده الذى يقود » وقد حذرت هذه المجلة من الصحوة الإسلامية التى لو قدر لها النجاح فسوف لا تقف فى طريقها أية قوة بعد ذلك فى العالم [١] .

وفى ألمانيا الغربية أيضاً كتبت صحيفة Bonner Sonntags Blatt فى عددها الصادر فى اليوم الرابع والعشرين من شهر أغسطس ١٩٨٠م هذا المقال الذى طفح حقداً وكراهية :

« إن المواطنين خائفون .. خائفون من المسلمين .. وهؤلاء المواطنون الفزعون تتمثل أمامهم صورة إيران التى يقرءون عنها يومياً أخباراً جديدة تثير فى نفوسهم الذعر ..

ويرى أحد علماء الطبيعة أنه أحب لديه أن يُبنى مفاعل ذرى أمام باب منزله من أن يبنى مركز إسلامى ، وذلك لأن المفاعل الذرى يمكن أن

---

(١) العدد ٤١ الصادر يوم ٣ / ١٠ / ١٩٧٧م .

يحسب حسابه [١] وهو يعنى بذلك فى المقابل أن المرء لا يستطيع أن يتنبأ بما يأتى من أخطار من جانب المسلمين .

فى عام ١٩٦٩م سافرت إلى بريطانيا .. واستقر بى المقام فى مدينة كمبردج Cambridge وفى شارع Hinton Avenue جمعتنى المقادير بمجموعة من الدارسين من سويسرا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا .

كانوا يقيمون معى فى نفس المنزل ، ونتناول طعامنا سوياً على مائدة واحدة كل يوم ..

إلا أنى لاحظت شيئاً فى تصرفات هذه المجموعة وموقفها منى .. لقد عرفوا أننى مسلم .. عرفوا ذلك حين كنت أتحدث إلى صاحبة البيت بألا يحتوى طعامى على لحم خنزير .. وأن تتفضل مشكورة بعدم وضع أى مسكر أمام مقعدى فى غرفة الطعام ..

لكن .. ليست هذه هى المشكلة ، فقد عرفت كثيراً من الإنجليز يفعلون ذلك تقززاً من منظر هذا اللحم المحرم .. وعرفت آخرين لايشربون الخمر صوناً لعقولهم وكرامتهم من الهوان والتبذل .. ألأننى مسلم ..؟

فالإسلام كما عرفوه ودرسوه دين همجى .. ! وأتباعه لابد وأن يكونوا على شاكلته وإن عاشوا فى مجتمع حضرى ..!

وقد لاحظت أيضاً :

أن صاحبة البيت – الذى كنت أنزل فيه مع هذه المجموعة – بدأت تراقبنى خفية .. كانت تتعمد دخول الحمام بعد خروجى منه .. وتزور حجرتى بعد الذهاب إلى المعهد الذى كنت أدرس فيه ، وترصد حركاتى طوال الوقت حين أكون موجوداً بالبيت ..

---

(١) Bonner Sonntags Blatt 24 / 8 / 1980

وبعد حوالى أسبوعين وجدتها تدخل على فجأة .. كان اليوم يوم أحد .. وكان كل من فى البيت نائماً بعد سهر طويل فى نوادى الليل .. وكنت دون غيرى اليقظ الوحيد بين أهل الكهف ..

قالت المسز داى Mrs DYE وهذا هو اسمها :

أريد أن أعتذر إليك ! فقد لاحظت أنك الوحيد الذى يحافظ على نظافة البيت ..! كنت أدخل الحمام بعد خروجك منه فأراه كأن لم يستعمل قط .. وكنت أذهب لترتيب حجرتك فأراك سبقتنى إلى هذه النظافة وهذا الترتيب ، وعرفت أنك الوحيد الذى يحافظ على نظام البيت ومواعيده بالضبط ..

ولكن شيئاً واحداً يحيرنى ، ولم أفهمه حتى الآن ؟

قلت للمسز « داى » مازحاً :

وأى شىء هذا الذى يحيرك منى ؟

قالت : فى تمام الساعة الخامسة صباح كل يوم أسمع فى حجرتك حركة ، وأرى الأنوار مضاءة .. فماذا يحدث عندك صباح كل يوم فى هذه الساعة المبكرة ؟

قلت للسيدة « داى » :

فى هذا الوقت أقوم لأصلى الفجر ، وهى أول صلاة يؤديها المسلم كل يوم .. وبعد الصلاة أجلس لأقرأ شيئاً من القرآن .. كتابنا المقدس .. ثم أتهيأ بعد ذلك للنزول إلى غرفة الطعام لتناول طعام الإفطار فى الوقت الذى حددته لنا بالضبط .

لقد تبدلت المسز داى تبدلاً كاملاً منذ هذه اللحظة ، كانت تعاملنى معاملة خاصة تعجب منها الأخ الأستاذ الدكتور عبد الجليل شلبى — إمام المركز الإسلامى فى هذا الوقت — حتى زوجها الرجل الغليظ المشاعر

والحس بدأ يؤثرني بمودته التي كانت شحيحة حتى بالنسبة لأطفاله الصغار في البيت ..!

كان معنا في البيت دارس فرنسي اسمه جون باسكال .. أبوه من كبار رجال الأعمال في فرنسا في مدينة « بوردو » .. لقد دعاني ذات يوم إلى حجرته ، وبعد كلمات المجاملة المعروفة وتقديم المرطبات والفاكهة سألني قائلاً :

هل تعرفني؟

طبعاً فأنت فلان .

قال : لا ، إنني أعني شيئاً آخر ..!

قلت : وما هو ؟

قال : أنا يهودي .

قلت وما الغرابة في ذلك .. إنني كمسلم مطالب باحترام اليهودي والمسيحي ، فديني يأمرني بحسن المعاملة لأهل هاتين الديانتين بصفة خاصة .

أما إذا كنت تقصد ما بين إسرائيل والعرب فالقضية هنا مختلفة .

فأنا كمسلم يأمرني الإسلام بقتال أي رجل يريد أن يعتدي على حياتي أو مالي .. حتى لو كان هذا المعتدي مسلماً ، فإن الإسلام يطالبني بأن أقاتله وأن أدفع ظلمه ..

فالقضية هنا ليست قضية يهودي ومسلم ، أو مسيحي ومسلم ، إنها قضية عدوان وظلم ، ودفع الظلم من طبيعة الإسلام .. سواء أكان المعتدي أو الظالم مسلماً أو غير مسلم ..

★ ★ ★

وقد فوجئت بعد سفري إلى أستراليا بحملة صليبية شرسة ضد الإسلام .. وبخاصة بعد مشكلة الرهائن في إيران ..

وقد ساعد على تأجج نيران هذه الحملة بعض المهاجرين من دول الشرق الأوسط الذين استغلوا هذه الفرصة للتنفيس عن أحقادهم الكامنة منذ أكثر من ألف عام ..

كان كل شيء ملتهباً .. في البيوت والمصانع ، والإذاعة ، والصحف ، كانت حملة الكراهية للإسلام ، والخوف من الإسلام في قمة غضبها .. فالمسلمون وحوش قتلة وهمج .. إلى آخر هذه المعزوفة البغيضة التي نسمعها كل يوم .

وكما يخرج اللبن من بين فرث ودم .. وينبثق نور الفجر من ظلمة الليل ، كان هذا الحوار الذي كشف السر عن أبعاد هذه المؤامرة ، وعن الشياطين والأشرار الذين أججوا نيران هذه الفتنة .. عن الإسلام العظيم .

دين الإخاء .. والمساواة .. والحرية ..

★ ★ ★

الحلقة الأولى من الحوار

* يهوذا الإسخربوطى .. والكتاب الأزرق ..
* ماذا عن اليهود والنصارى فى القرآن ؟
* الحقيقة بين الكذب والافتراء ..
* معنى « الذمة » عند أهل « الملة » .
* وهذه هى حقوق أهل الكتاب .
* دفاع حتى الموت .
* موقف عظيم .. من إمام عظيم .
* عدالة مطلقة ومساواة .
* قصة اليهودى الذى برأته السماء .
* التكـــافل للجميـــع .
* لا إكراه فى الدين .
* كلمـــة التـــاريخ .
* أبو حنيفة المفترى عليه .
* وهذه هى شهادة المنصفين .

دق جرس التليفون صباح يوم بارد فى غرفة مكتبى بمسجد الملك فيصل الواقع فى شارع كومونولث Common Wealth بمنطقة سرى هيلز Surry Hills ..

– المركز الإسلامى؟

– نعم .. هنا المركز الإسلامى .

– أنا الآنسة فيفيان من كلية الحقوق – جامعة سيدنى – أرغب فى لقائكم لإجراء حوار حول ما نشر عن الإسلام وحقوق الإنسان .. فهل تسمحون لنا بالزيارة وإجراء هذا الحوار ؟

– بكل سرور .. وأنا فى انتظاركم الآن ..

– معذرة فلن نتمكن من إتمام هذه الزيارة قبل يوم الخميس .. الساعة الثالثة ظهراً .

– سأكون فى انتظاركم فى نفس الموعد بمشيئة الله .

– شكراً .. وإلى اللقاء .

★ ★ ★

لقد عاش الشعب الاسترالى بعيداً عن الجدل العقائدى طوال قرنين من الزمان .. فاستراليا بمفهومها الدولى المعروف لا يزيد عمرها عن مائتى عام ، ولم يكن فى حسبان أحد من المستوطنين أن يأتى يوم يصبح فيه هذا النوع من الجدل الدينى شائعاً بين الناس .

ولكن الأمر تغير كثيراً بعد أن فتحت استراليا أبوابها لهجرة الكثيرين من مختلف البلدان .. وقد حمل هؤلاء المهاجرون ضمن ما حملوا من الأمتعة عقائدهم الدينية ، وخلافاتهم المذهبية ، ولم يحاولوا التخلص من أحقادهم القديمة حتى ظهرت فجأة فى موجة عنيفة كريهة .. بشعة .

لقد صرح كثير من المسئولين أن العقيدة الدينية لا تعنيهم فى شىء .. بل إن المستر « ويتلم » رئيس وزراء الحكومة العمالية السابق والمستر « ران » رئيس وزراء ولاية نيوسوث ويلز - الحالى - صرحا أكثر من مرة بأنهما ملحدان ، ولا يدينان بأى دين من الأديان .

والشعب الاسترالى لا يعرف عن دينه أكثر من أعياد الميلاد ، وهى معرفة لا تتجاوز ما يصاحب هذه الأعياد من فرح ومتعة تصاحب هذه الأعياد .

ومع الموجات الجديدة للهجرة بدأت تظهر على سطح هذه الحياة الوادعة فقاعات سامة .. ووجدت جراثيم الكراهية والبغضاء فرصة للتضليل والفتنة .

* * *

يهوذا الإسخربوطى والكتاب الأزرق :

وفى اليوم المحدد ، وفى تمام الساعة الثالثة بالضبط دلف إلى ساحة المسجد مجموعة من الأساتذة والطلاب ، فاستقبلتهم مُرَحباً .. وتعرفت عليهم واحداً واحداً .. ثم بدأ الحوار ، وإن شئت فقل : بدأ إطلاق النار !!

فى البداية .. أخرج الأساتذة والطلاب كتاباً أزرق الغلاف .. أسود القلب .. كتبه محام فاشل هاجر إلى استراليا بعد أن فشلت محاولاته الساذجة لإثارة الفتنة الطائفية فى مصر .

قلت للمستر كلارك والآنسة فيفيان : هاتوا ما عندكم من أسئلة ..

قالت الآنسة فيفيان : لقد حضرت هذا الحوار الرائع فى كنيسة ستراثفيلد[1] ونقلت ما دار فى هذا الحوار إلى الأساتذة والطلاب الذين رغبوا فى إقامة مثل هذا الحوار عن الإسلام وحقوق الإنسان فى هذا العصر ،

---

(١) تم إجراء هذا الحوار فى الكنيسة المتحدة فى مدينة ستراثفيلد .

وبخاصة بعد قراءتنا لهذا الكتيب الذى تناقض كل كلمة فيه ما سبق أن قلته وأعلنته فى حوار سترانفيلد ..!

ماذا عن اليهود والنصارى فى القرآن :

قلت للآنسة فيفيان : اضربى لى مثلاً .

وهنا بدأت تقرأ من هذا الكتيب آيات القرآن الكريم التى تحذر من موالاة اليهود والنصارى وتأمر المسلمين باتخاذ الحذر والحيطة منهم ليلاً ونهاراً ..!

وقبل أن تنتهى من القراءة رفعت يدى مقاطعاً ..

- إننى لم أنته بعد من القراءة ؟

- سأتولى ذلك نيابة عنك .. يا آنسة فيفيان ..

أولاً : حرصاً على راحتك من ناحية ..

ثانياً : لتوفير الوقت الضائع فى الاستطراد فى القراءة .

ولا تظنى أنى أقاطعك .. فالمقاطعة هروب من الحقيقة .. والحقيقة هى هدفنا الأسمى وإن كان لكل شيخ طريقة .!

لقد فُهمت هذه الآيات فهماً خاطئاً ، فمن المعروف عندنا نحن المسلمين أن القرآن كان ينزل من السماء لبيان حكم معين وفى ظرف معين ، ولا يمكن فهم الايات على وجهها الصحيح ، قبل الإحاطة بأسباب نزول هذه الآيات والظروف التى أنزلت فيها هذه الآيات ، وإلا كان مثلنا كمثل هذا الرجل الذى ترك الصلاة وانقطع عن المسجد لأنه فصل بين آيتين من القرآن ترتبط إحداهما بالأخرى أشد الارتباط .

فقد جاء فى القرآن الكريم ﴿ **فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون** ﴾ [الماعون : ٤ ، ٥] .

إن قراءة الآية الأولى مستقلة عن الثانية تعنى أن الصلاة هلاك ودمار ، ولهذا لا يجب أن نصلى .. (ضحك)

ومن باب المزاح والتظرف أقول : إن شاعراً ماجناً أسرف فى شرب

الخمر وحين طلب إليه أن يقلع ويتوب قال ساخراً : إن الله لم يقل ويل لشاربى الخمر بل قال ويل للمصلين .. (ضحك) .

ولقد وقع كثير من المستشرقين فى هذا الخطأ فنادراً ما يتعلم الإنسان لغة غير لغته ثم يجيد هذه اللغة .. وإن خطأ يسيراً فى كلمة واحدة يقلب المعنى رأساً على عقب .

لقد حضر إلينا فى مصر مستشرق أميركى حاول ترجمة بحث دينى مليء بنصوص القرآن والأحاديث النبوية .. وكانت المفاجأة فى هذه الترجمة أن الأستاذ ترجم كلمة (حديث) التى تعنى فى الاصطلاح الإسلامى قول النبى أو فعله ، ترجم هذه الكلمة إلى مرادفها فى اللغة الإنجليزية (Modern) وطبقاً لهذا الفهم خرجت الترجمة جنيناً شائهاً لا يعرف ذكراً كان أم أنثى .. (ضحك)

فما قصة هذه الآيات التى أشارت إليها الآنسة فيفيان ؟

يقول الله تعالى :

﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾

[آل عمران : ٢٨] .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾

[النساء : ١٤٤] .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ﴾

[المائدة : ٥١] .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ... ﴾

[الممتحنة : ١] .

﴿ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين ... ﴾ [الممتحنة : ٩]

إلى غير ذلك من الآيات التى يوحى ظاهرها بالدعوة إلى مقاطعة غير المسلم واعتباره رجساً من عمل الشيطان المجرم ..!!

فهل الأمر كذلك ؟

إن الذى يتأمل الآيات المذكورة تأملاً فاحصاً ، ويدرس تواريخ نزولها وأسبابه وملابساته يتبين له ما يأتى [1] :

أولاً : أن النهى إنما هو عن اتخاذ المخالفين أولياء بوصفهم جماعة متميزة بديانتها وعقائدها وأفكارها وشعائرها ، لا بوصفهم جيراناً أو زملاء أو مواطنين ، والمفروض أن يكون ولاء المسلم للأمة المسلمة وحدها ، ومن هنا جاء التحذير فى عدد من الآيات من اتخاذ ﴿ **أولياء من دون المؤمنين** ﴾ أى أنه يتودد إليهم ويتقرب لهم على حساب جماعته لأن فى ذلك خيانة للأمة ، وخروجاً على نظام الدولة ولا يرضى نظام دينى ولا وضعى لأحد من أتباعه أن يدع جماعته التى ينتسب إليها ويعيش بها ، ليجعل ولاءه لجماعة أخرى من دونها .

لماذا نحارب الشيوعية مثلاً ؟

لأن الشيوعى يكون ولاؤه لطبقته ، لا لوطنه ، ولهذا كانت دوائر الهجرة الأسترالية تتحرى عن تاريخ الراغبين فى الهجرة ، فإذا كان أحدهم شيوعياً ، منع من هذه الهجرة ولم يسمح له بدخول أستراليا ..

ثانياً : إن الموادّة التى نهت عنها الآيات ، إنما هى موادّة من آذى المسلمين وحادّ الله ورسوله ، ومما يدل على ذلك :

(أ) قوله تعالى فى سورة المجادلة : ﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله** ﴾ ومحادة الله ورسوله ليست مجرد الكفر بهما ، بل محاربة دعوتهما ، والوقوف فى وجهها ، وإيذاء أهلها .

---

(1) انظر : غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى - د/ يوسف القرضاوى ص ١٦ وما بعدها .

(ب) قوله تعالى فى مستهل سورة الممتحنة : ﴿ **تلقون إليهم بالمودَّة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم** ﴾ .

فالآية تعلل تحريم الموالاة أو الإلقاء بالمودة إلى المشركين بأمرين مجتمعين : كفرهم بالإسلام وإخراجهم للرسول والمؤمنين من ديارهم بغير حق .

(جـ) قوله تعالى فى نفس السورة : ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون** ﴾ .

فقسم المخالفين فى الدين إلى فريقين :

فريق كان سلماً للمسلمين ، لم يقاتلهم فى الدين ، ولم يخرجهم من ديارهم فهؤلاء لهم حق البر والإقساط إليهم .

وفريق اتخذوا موقف العداوة والمحادة للمسلمين ، بالقتال أو الإخراج من الديار أو المظاهرة والمعاونة على ذلك ، فهؤلاء يحرم موالاتهم مثل مشركى مكة الذين ذاق المسلمون على أيديهم الويلات ، ومفهوم هذا النص أن الفريق الآخر لا تحرم موالاته .

ثالثاً : أن الإسلام أباح للمسلم التزوج من أهل الكتاب ، والحياة الزوجية يجب أن تقوم على السكون النفسى والمودة والرحمة ، كما دل على ذلك القرآن فى قوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة** ﴾ .

وهذا يدل على أن مودة المسلم لغير المسلم لا حرج فيها ، وكيف لا يوادُّ الرجل زوجته إذا كانت كتابية ؟ وكيف لا يوادُّ الولد جده وجدته وخاله وخالته إذا كانت أمُّه ذمية ؟

الحقيقة بين الكذب والافتراء

رابعاً : إن الحقيقة التى لا شك فيها أن الإسلام يؤكد إعلاء الرابطة الدينية على كل رابطة سواها ، سواء كانت نسبية أو إقليمية أو عنصرية أو طبقية ، فالمسلم أخو المسلم ، والمؤمنون أخوة ، والمسلمون أمة واحدة ، يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم .

وهذا ليس فى الإسلام وحده ، بل هى طبيعة كل دين ، وكل عقيدة ، ومن قرأ الإنجيل وجده يؤكد هذا المعنى فى أكثر من موقف [1] .

بل حدث هنا فى استراليا - فى أعقاب الثورة الإيرانية - أن بعض المسلمين الذين هاجروا إلى أستراليا ، وحصلوا على الجنسية الأسترالية ، حدث أن استدعى هؤلاء المسلمون إلى بعض الدوائر الرسمية ثم سئلوا هذا السؤال :

لو هاجمت دولة أندونيسيا استراليا فمن يكون ولاء المسلم فى هذه الحالة ؟ مع استراليا أم مع أندونيسيا ؟

فكان جواب هذا البعض من المسلمين يكون ولاؤنا مع الحق .. سواء أكان هذا الحق فى جانب أستراليا أم فى جانب أندونيسيا .

مستر باركر والسيدة بريجيت :

إننا نشكرك على هذا التوضيح ، ونرجو ألا يضيق صدرك بأسئلتنا التى تبدو قاسية فى أسلوبها الصريح ..!

إننا نعتقد بأن العالم يتجه إلى التقارب ، وفى عصر التكنولوجيا لم تعد هناك مسافات ، إن الشعوب تسعى بفطرتها إلى مزيد من التفاهم .. والتفاهم يحتاج إلى إعادة النظر فى المواريث القديمة التى مزقت عرى الإخاء والمودة بين بنى البشر .. وبالتالى يحتاج إلى مزيد من الدراسة

---

(١) المصدر السابق .

والبحث ، ولقاؤنا هذا خطوة متواضعة فى الطريق إلى هذا الهدف ..

ولهذا فلابد أن نسأل ، وأن نكون صرحاء وأن نعبر عما فى أنفسنا دون غموض أو خفاء ..

– أشكر السيدة بريجيت والسيد باركر على حسن ظنهما هذا وأضيف فوق ذلك أن هذا الذى تسعون إليه ، وتعملون له سبق إليه القرآن منذ أربعة عشر قرناً حيث يقول :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ... ﴾ [الحجرات : ١٣] .

فلا خلاف بيننا فى الهدف ولا فى الوسيلة التى تحقق هذا الهدف ، وإن كنا – نحن المسلمين – سبقناكم إلى هذه الدعوة بأربعة عشر قرناً ..!

– شيء جميل حقاً نسمعه لأول مرة وهو مما يشجعنا على السؤال عن حقوق غير المسلمين فى المجتمعات التى تطبق الشريعة الإسلامية .

قلت للمستر باركر والسيدة بريجيت وإلى الزميلات والزملاء المشتركين فى هذه الندوة :

– هل قرأتم الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ؟

– قرأناه جميعاً .

– متى صدر هذا الإعلان ؟

– منذ حوالى ثلاثين عاماً تقريباً .

– وماذا عن الثورة الفرنسية ؟

– لقد درسناها أيضاً ونحفظ شعاراتها جيداً ..

– هل تذكرون متى كانت هذه الثورة ؟

– منذ حوالى مائتى عام تقريباً .

– هل تذكرون قبلها شيئاً ؟

– لا .. لانعرف عن ذلك شيئاً .

أما نحن المسلمين فنعرف .. نعرف أول ثورة حقيقية قامت لتحرير الإنسان فوق هذه الأرض .. تحريره جسداً .. وتحريره عقلاً .. وتحريره روحاً .. لم تكن ثورة من تلك الثورات المعروفة قديماً وحديثاً .. بل كانت هداية ورحمة للناس جميعاً .

– ومتى كانت هذه الثورة ؟

– منذ أربعة عشر قرناً ..

– على يد من كانت ؟

– على يد النبى محمد ﷺ .. !!

وهنا التزم الجميع بالصمت .. ونظر بعضهم إلى بعض ، وخيل إلى أنهم غير مصدقين لما قلت ..

معنى « الذمة » عند أهل « الملة »

قلت للمستر كلارك والسيدة بريجيت :

إن للمسيحيين واليهود – فى الإسلام – معاملة خاصة ، ومنزلة خاصة كما يعرفون فى الإسلام باسم « أهل الذمة » .

فهم « أهل ذمة » والذمة معناها العهد ، والضمان والأمان ، وإنما سموا بذلك لأن لهم عهد الله ، وعهد رسوله ، وعهد جماعة المسلمين أن يعيشوا فى حماية الإسلام آمنين مطمئنين ، فلهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم على المسلمين من واجبات .

أول هذه الحقوق هو الحماية :

وهذه الحماية تشمل حمايتهم من كل عدوان خارجى ومن كل ظلم داخلى ، أما الحماية من الاعتداء الخارجى فيجب لهم ما يجب للمسلمين ،

وعلى الإمام أو ولى الأمر فى المسلمين بما له من سلطة شرعية ، وما لديه من قوة عسكرية ، أن يوفر لهم هذه الحماية . وكما يقول بعض الفقهاء :

« يجب على الإمام حفظ أهل الذمة ومنع من يؤذيهم ، وفك أسرهم ، ودفع من قصدهم بأذى إن لم يكونوا بدار حرب ، بل كانوا بدارنا ، ولو كانوا منفردين ببلد »

وعلل ذلك بأنهم : « جرت عليهم أحكام الإسلام وتأبد عقدهم ، فلزمه ذلك كما يلزمه للمسلمين »[1] .

دفاع حتى الموت :

وينقل الإمام القرافى المالكى فى كتابه « الفروق » قول الإمام الظاهرى ابن حزم فى كتابه « مراتب الإجماع » :

« إن من كان فى الذمة ، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح ونموت دون ذلك ، صوناً لمن هو فى ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ ، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة[2] » . وحكى فى ذلك إجماع الأمة .

وعلق على ذلك القرافى بقوله : « فعقد يؤدى إلى إتلاف النفوس والأموال صوناً لمقتضاه عن الضياع .. إنه لعظيم »[3] .

موقف عظيم من إمام عظيم

ومن المواقف التطبيقية لهذا المبدأ الإسلامى موقف شيخ الإسلام ابن تيمية حينما تغلب التتار على الشام ، وذهب الشيخ ليكلم « قائد التتر » فى إطلاق الأسرى ، فسمح القائد التترى للشيخ بإطلاق أسرى المسلمين ، وأبى أن يسمح له بإطلاق أهل الذمة فما كان من شيخ الإسلام إلا أن قال :

« لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسارى من اليهود والنصارى ، فهم

---

(١) مطالب أولى النهى ج ٢ ص ٦٠٢ - ٦٠٣ .

(٢) الفروق ج ٣ ص ١٤ - ١٥ ، الفرق التاسع عشر والمائة .

(٣) نفس المصدر السابق .

أهل ذمتنا ولا ندع أسيراً ، لا من أهل الذمة ، ولا من أهل الملة » ، فلما رأى إصراره وتشدده أطلقهم له .

عدالة مطلقة ومساواة

أما الحماية من الظلم الداخلى ، فهو أمر يوجبه الإسلام ويشدد فى وجوبه ، ويحذر المسلمين أن يمدوا أيديهم أو ألسنتهم إلى أهل الذمة بأذى أو عدوان ، فالله تعالى لا يحب الظالمين ولا يهديهم ، بل يعاجلهم بعذابه فى الدنيا أو يؤخر لهم العقاب مضاعفاً فى الآخرة .

وقد تكاثرت الآيات والأحاديث الواردة فى تحريم الظلم وتقبيحه وبيان آثاره الوخيمة فى الدنيا والآخرة ، وجاءت أحاديث خاصة تحذر من ظلم غير المسلمين من أهل العهد والذمة .

يقول الرسول ﷺ : « من ظلم معاهداً أو انتقصه حقاً أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه ، فأنا حجيجه يوم القيامة » [1] .

وقال ﷺ : « من آذى ذمياً فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة » [2] .

وقال ﷺ أيضاً : « من آذى ذمياً فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله » [3] .

ولهذا كله اشتدت عناية المسلمين منذ عهد الخلفاء الراشدين ، بدفع الظلم عن أهل الذمة وكف الأذى عنهم ، والتحقيق فى كل شكوى تأتى من قبلهم .

كان عمر – رضى الله عنه – يسأل الوافدين عليه من الأقاليم عن حال أهل الذمة ، خشية أن يكون أحد من المسلمين قد أفضى إليهم بأذى ، فيقولون له : « ما نعلم إلا وفاء » [4] ، أى بمقتضى العهد والعقد الذى

---

(١) رواه أبو داود والبيهقى – انظر : السنن الكبرى ج ٥ ص ٢٠٥ .

(٢) رواه الخطيب بإسناد حسن . (٣) رواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد حسن .

(٤) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢١٨ .

بينهم وبين المسلمين ، وهذا يقتضي أن كلاً من الطرفين وفى بما عليه.

وعلى بن أبى طالب – رضى الله عنه – يقـول : إنما بذلوا الجـزية لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا [١] .

وفقهاء المسلمين من كافة المذاهب الاجتهادية صرحوا وأكدوا بأن على المسلمين دفع الظلم عن أهل الذمة والمحافظة عليهم ، لأن المسلمين حين أعطوهم الذمة قد التزموا دفع الظلم عنهم ، وهم صاروا به من أهل دار الإسلام بل صرح بعضهم بأن ظلم الذمى أشد من ظلم المسلم إثماً [٢] .

★ ★ ★

ثانياً : حفظ النفس :

دم الذمى كدم المسلم ، فإن قتل مسلم أحداً من أهل الذمة اقتص منه كما لو قتل مسلماً .

وقد روى أن رجلاً من المسلمين قتل رجلاً من أهل الذمة فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : « أنا أحق من وفى بذمته ثم أمر به فقتل » [٣] .

وفى زمان عمر رضى الله عنه قتل رجل من بنى بكر بن وائل رجلاً من أهل الذمة بالحيرة فأمر عمر رضى الله تعالى عنه بتسليم الرجل إلى أولياء المقتول ، فسلم إليهم فقتلوه [٤] .

وفى خلافة على كرم الله وجهه أخذ رجل من المسلمين بقتل ذمى ، وقامت الحجة عليه فأمر بالقصاص ، فجاءه أخو المقتول وقال :

---

(١) المغنى ٨ ص ٤٤٥ ، البدائع ج ٧ ص ١١١ نقلاً عن أحكام الذميين والمستأمنين ص ٨٩ .

(٢) ذكر ذلك ابن عابدين فى حاشيته وهو مبنى على أن الذمى فى دار الإسلام أضعف شوكة عادة ، وظلم القوى للضعيف أعظم فى الإثم . انظر فى هذا الموضوع : « غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى » للدكتور / يوسف القرضاوى .

(٣) العناية فى شرح الهداية ج ٨ ص ٢٥٦ ، وقد روى الدار قطنى هذا الحديث عن ابن عمر رضى الله عنه ولفظه : أنا أكرم من وفى بذمته .

(٤) البرهان فى شرح مواهب الرحمن ج ٣ ص ٢٧٨ .

قد تركت القود ، ولكنه لم يرض بذلك وقال : لعلهم فزعوك أو هددوك ، فقال :

لا ، بل قد أخذت الدية ، ولا أظن أخى يعود إلىّ بقتل هذا الرجل .

فأطلق علىّ سراح القاتل وقال : من كان له ذمتنا فدمه كدمنا وديته كديتنا [1] .

وفى رواية أخرى أن عليًا رضى الله عنه قال : إنما قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا ، ومن هذا استنبط الفقهاء أنه إن قتل مسلم أحداً من أهل الذمة خطأ ، كانت ديته كدية قتله أحداً من المسلمين خطأ [2] .

اليهودى الذى برأته السماء :

إن القانون فى الدولة الإسلامية لا يفرق بين مسلم وغير مسلم ، فالذى يعاقب به المسلم يعاقب به الذمى أيضاً ، وإن سرق مسلم مال ذمى ، أو سرق ذمى مال مسلم ، قطعت يد السارق فى كلتا الحالتين ، كذلك إن قذف ذمى رجلاً أو امرأة بالزنا ، أو فعل ذلك أحد من المسلمين أقيم حد القذف على كل منهما على السواء ، وقل مثل ذلك فى الزنا فهما سواء فى حده أيضاً ، إلا الخمر ، فإن أهل الذمة قد استثنوا من حدها فى الإسلام [3] .

وقد حدث فى عهد النبى ﷺ أن سرق رجل مسلم درعاً من بيت رجل مسلم ، ثم ذهب السارق بهذه الدرع وأخفاها فى بيت رجل يهودى وعندما اكتشفت الجريمة حاول المسلم السارق التنصل من التهمة وإلصاقها

---

(1) البرهان ج ٢ ص ٢٨٢ . (2) الدر المختار ج ٣ ص ٢٠٣ .

(3) كتاب الخراج ص ٢٠٨ - ٥٠٩ المبسوط ج ٩ ص ٥٧ - ٥٨ ويرى الإمام مالك رحمه الله أن الذمى مستثنى من حد الزنا كحد الخمر ، ويستنبط حكمه هذا من قضاء عمر رضى الله عنه بأن الذمى إن زنى يترك أمره إلى أهل ملته أى يعمل بقانون أحواله الشخصية ، انظر فى ذلك حقوق أهل الذمة فى الدولة الإسلامية لمولانا المودودى .

باليهودى الذى لم يكن يعرف شيئاً عن السرقة ، ثم شهد أقارب السارق معه ضد اليهودى ورفع الأمر إلى النبى محمد ﷺ .

إن التهمة ثابتة على اليهودى .. والشهود كلهم ضده .. وأى قاض لابد أن يصدر حكمه بالإدانة وتنفيذ العقوبة .

ولكن الوحى ينزل من السماء فينفى عن اليهودى تهمة السرقة ويدين السارق والشهود بالخيانة ، ويسجل القرآن الكريم هذه الواقعة لتبقى دستوراً خالداً إلى يوم القيامة .

﴿ ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً * ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شىء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ [النساء : ١١٢ - ١١٣] .

أكثر من هذا ..

فقد حدث أيام عمر بن الخطاب الخليفة الثانى من خلفاء النبى : أن على بن أبى طالب - ابن عم النبى ﷺ وزوج ابنته ووالد أحب الناس إليه الحسن والحسين - حدث أن تنازع علىٌ مع رجل يهودى حتى بلغ الأمر عمر بن الخطاب ، فلما مثلا أمامه فى مجلس قضاء :

قال عمر لعلى : قف يا أبا الحسن ..

فظهر الغضب فى وجه علىّ !

فقال عمر : أكرهت أن نسوى بينك وبين خصمك اليهودى فى القضاء ؟

فقال علىّ : لا .. ولكنى كرهت منك أن عظمتنى فى الخطاب فقلت يا أبا الحسن ، ولم تصنع مع خصمى اليهودى ما صنعته معى من التعظيم !

ومن أشهر وصايا عمر في العدل تلك الرسالة التي بعث بها إلى أبي موسى الأشعري – رئيس القضاة – في ذلك الوقت وقوله له :

« آس – سو – بين الناس في وجهك ومجلسك وقضائك حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك » .

هكذا يطلب عمر من القاضي ألا يفرق بين المتخاصمين في النظرة .. وفي الكلمة .. وفي طريقة السؤال وهي أمور تبدو بسيطة وتافهة ..

ولكن هذه الأمور التي تبدو بسيطة وتافهة تترتب عليها أحكام خطيرة ، وتقع بسببها مشاكل كثيرة ..

* * *

ثالثاً : حماية الأموال :

« .. وهذا مما اتفق عليه المسلمون ، في جميع المذاهب وفي جميع الأقطار ، ومختلف العصور » .

فقدر روى أبو يوسف في « الخراج » ما جاء في عهد النبي ﷺ لأهل نجران .

« ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة النبي رسول الله على أموالهم وملتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ..

وفي عهد [1] عمر إلى أبي عبيدة بن الجراح أن : « امنع المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم وأكل أموالهم إلا بحلها » .

وقد مر بنا قول علي : « إنما بذلوا الجزية لتكون دماؤهم كدمائنا ، وأموالهم كأموالنا » وعلى هذا استقر رأي المسلمين طوال العصور .

فمن سرق مال ذمي قطعت يده ، ومن اغتصبه عزر وأعيد المال إلى

---

(١) المراد بكلمة عهد هنا : الوصية .

صاحبه ، ومن استدان من ذمى فعليه أن يقضى دينه ، فإن مطله وهو غنى حبسه الحاكم حتى يؤدى ما عليه .

وبلغ من رعاية الإسلام لحرمة أموالهم وممتلكاتهم أنه يحترم ما يعدونه حسب دينهم مالاً وإن لم يكن مالاً فى نظر المسلمين .

فالخمر والخنزير لا يعتبران عند المسلمين مالاً متقوماً ، ومن أتلف لمسلم خمراً أو خنزيراً لا غرامة عليه ولا تأديب ، بل هو مثاب مأجور على ذلك ، ولا يجوز للمسلم أن يمتلك هذين الشيئين لا لنفسه ولا ليبيعهما للغير .

أما الخمر والخنزير إذا ملكهما غير المسلم فإنهما يعتبران عنده مالاً ، بل من أنفس الأموال ، كما قال فقهاء الحنفية ، فمن أتلفها على الذمى غرم قيمتها !

رابعاً : حمـاية الأعـراض:

ويحمى الإسلام عرض الذمى وكرامته ، كما يحمى عرض المسلم وكرامته ، فلا يجوز لأحد أن يسبه أو يتهمه بالباطل ، أو يشنع عليه بالكذب ، أو يغتابه ، ويذكره أيضاً بما يكره فى نفسه أو نسبه أو خلقه أو خلقه ، أو غير ذلك مما يتعلق به .

يقول الفقيه الأصولى « المالكى شهاب الدين القرافى » فى كتاب « الفروق » : إن عقد الذمة يوجب لهم حقوقاً علينا ، لأنهم فى جوارنا وفى خفارتنا – حمايتنا – وذمتنا وذمة الله تعالى ، وذمة رسول الله ﷺ ، ودين الإسلام ، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة فقد ضيع ذمة الله وذمة رسول الله ﷺ وذمة دين الإسلام [1] .

وفى الدر المختار من كتب الحنفية : يجب كف الأذى عن الذمى وتحرم غيبته كالمسلم .

---

(١) الفروق ج ٣ ص ١٤ الفرق التاسع عشر والمائة .

ويعلق العلامة ابن عابدين على ذلك بقوله : لأنه بعقد الذمة وجب له ما لنا ، فإذا حرمت غيبة المسلم حرمت غيبته ، بل قالوا : إن ظلم الذمي أشد [١] .

★ ★ ★

خامساً : التأمين ضد العجز والشيخوخة والفقر :

وأكثر من ذلك أن الإسلام ضمن لغير المسلمين في ظل دولته ، كفالة المعيشة الملائمة لهم ولمن يعولونهم لأنهم رعية للدولة المسلمة وهي مسئولة عن كل رعاياها ، قال رسول الله ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » [٢] .

وهذا ما مضت به سنة الراشدين ومن بعدهم .

ففي عقد الذمة الذي كتبه خالد بن الوليد لأهل الحيرة بالعراق ، وكانوا من النصارى :

« وجعلت لهم ، أيما شيخ ضعف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله » [٣] . وكان هذا في عهد أبي بكر الصديق ، وبحضرة عدد كبير من الصحابة وقد كتب خالد به إلى الصديق ولم ينكر عليه أحد ، ومثل هذا يعد إجماعاً .

ورأى عمر بن الخطاب شيخاً يهودياً يسأل الناس ، فسأله عن ذلك فعرف أن الشيخوخة والحاجة ألجأته إلى ذلك ، فأخذه وذهب به إلى خازن بيت مال المسلمين ، وأمره أن يفرض له ولأمثاله من بيت المال مايكفيهم ويصلح شأنهم ، وقال في ذلك :

---

(١) الدر المختار وحاشية ابن عابدين عليه ج٣ ص٣٤٤ - ٣٤٦ ط استانبول .

(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر .

(٣) رواه أبو يوسف في « الخراج » .

« ما أنصفناه إذا أخذنا منه الجزية شاباً ، ثم نخذله عند الهرم »[1] .

وبهذا تقرر الضمان الاجتماعى فى الإسلام باعتباره مبدأً عاماً يشمل أبناء المجتمع جميعاً مسلمين وغير مسلمين ، ولا يجوز أن يبقى فى المجتمع المسلم إنسان محروم من الطعام أو الكسوة أو المأوى أو العلاج ، فإن دفع الضرر عنه واجب دينى ، مسلماً كان أو ذمياً .

وذكر الإمام النووى فى « المنهاج » أن من فروض الكفاية : دفع ضرر المسلمين ككسوة عار ، أو إطعام جائع إذا لم يندفع بزكاة وبيت مال .

ووضع العلامة شمس الدين الرملى الشافعى فى « نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج » أن أهل الذمة كالمسلمين فى ذلك ، فدفع الضرر عنهم واجب .

ثم بحث الشيخ الرملى رحمه الله فى تحديد معنى دفع الضرر فقال :

وهل المراد بدفع الضرر ما يسد الرمق أم الكفاية ؟ قولان أصحهما ثانيهما .

فيجب فى الكسوة ما يستر كل البدن على حسب ما يليق بالحال من شتاء وصيف ، ويلحق بالطعام والكسوة ما فى معناهما كأجر طبيب ، وثمن دواء ، وخادم منقطع ، كما هو واضح .

قال : ومما يندفع به ضرر المسلمين والذميين فك أسراهم[2] .

* * *

سادساً : حـــريـة التديـــن : لا إكراه فى الدين

ويحمى الإسلام – فيما يحميه من حقوق أهل الذمة .. حق الحرية .. وأول هذه الحريات : حرية الاعتقاد والتعبد ، فلكل ذى دين دينه

---

(١) المصدر السابق .

(٢) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج للرملى ج٨ ص٤٦ كتاب « السير » .

ومذهبه ، لايجبر على تركه إلى غيره ، ولا يضغط عليه أى ضغط ليتحول منه إلى الإسلام .

وأساس هذا الحق قوله تعالى : ﴿ **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى** ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

وقوله سبحانه : ﴿ **أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾ [يونس : ٩٩] .

قال ابن كثير فى تفسير الآية الأولى : أى لا تكرهوا أحداً على الدخول فى دين الإسلام ، فإنه بين واضح ، جلى دلائله وبراهينه ، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه .

وسبب نزول الآية - كما ذكر المفسرون - يبين لنا جانباً من إعجاز هذا الدين ، فقد رووا عن ابن عباس قال :

كانت المرأة تكون مقلاتاً - قليلة النسل - فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده (كان يفعل ذلك نساء يثرب فى الجاهلية) فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقال آباؤهم : لا ندع أبناءنا [يعنون : لاندعهم يعتنقون اليهودية فأنزل الله عز وجل هذه الآية : ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾ »[1] .

فرغم أن محاولات الإكراه كانت من آباء يريدون حماية أبنائهم من التبعية لأعدائهم المحاربين الذين يخالفونهم فى دينهم وقوميتهم ، ورغم الظروف الخاصة التى دخل بها الأبناء دين اليهودية وهم صغار ، ورغم ما كان يسود العالم كله حينذاك من موجات التعصب والاضطهاد للمخالفين فى المذاهب ، فضلاً عن الدين ، كما كان فى مذهب الدولة الرومانية التى خيرت رعاياها حيناً بين التنصر والقتل ، فلما تبنت المذهب «الملكانى»

---

(١) تنبيه ابن كثير إلى ابن جرير ، قال : قد رواه أبو داود والنسائى وابن أبى حاتم وابن حبان فى صحيحه .. وهكذا ذكر مجاهد وسعيد بن جبير والشعبى والحسن البصرى وغيرهم أنها نزلت فى ذلك .. تفسير ابن كثير ج١ ص٢١ .

أقامت المذابح لكل من لايدين به من المسيحيين من اليعاقبة وغيرهم .

رغم كل هذا رفض القرآن الإكراه ، بل من هداه الله وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة ، ومن أعمى الله قلبه ، وختم على سمعه وبصره ، فإنه لا يفيده الدخول فى الدين مكرهاً - كما قال ابن كثير - فالإيمان عند المسلمين ليس مجرد كلمة تلفظ باللسان ، أو طقوس تؤدى بالأبدان ، بل أساسه إقرار القلب وإذعانه وتسليمه .

ولهذا لم يعرف التاريخ شعباً مسلماً حاول إجبار أهل الذمة على الإسلام كما أقر بذلك المؤرخون الغربيون أنفسهم [١] .

★ ★ ★

ولابد لنا من الإشارة إلى قضية هامة تغيب عن أذهان الكثيرين هنا فى استراليا .. إن فى استراليا الآن ما يزيد على مائتى ألف مسلم .. وإنى أعترف سلفاً بأن الحكومة الاسترالية لا تتخذ موقفاً معادياً من الإسلام ، ولم تضيق على أحد من المسلمين بسبب هذا الإسلام ، وأن الحرية مطلقة فى ممارسة شعائر الإسلام .

ولكن .. ماذا بالنسبة للقوانين التى تتعارض مع الشريعة الإسلامية فى قضايا الزواج والطلاق ؟

وماذا أيضاً بالنسبة لأداء صلاة الجمعة التى يتحتم على المسلم أداؤها فى المساجد والجماعات ؟ وثالثاً وأخيراً :

هل يسمح للمسلم بالانقطاع عن العمل أيام الأعياد ؟ إن القوانين هنا لا تسمح بشيء من ذلك كله .. فالتقاضى أمام المحاكم يتم طبقاً لقوانين تخالف تماماً كل ما أمر به الإسلام ، والمسلمون لا يستطيعون التوجه لصلاة الجمعة إلا فى أوقات الراحة الخاصة بتناول طعام الغداء .. ولا تعترف الدولة بأعيادهم الدينية كما تفعل ذلك بالنسبة لغيرهم من أتباع بقية الديانات .

---

(١) غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى - د/ يوسف القرضاوى ص١٦ - ٢٠ .

إن المسلمين فى استراليا مواطنون كغيرهم من النصارى واليهود .. فلماذا يحرم المسلمون وحدهم من هذه الحقوق المقررة للنصارى واليهود ؟

أما الإسلام فلم يقف مثل هذا الموقف من مخالفيه فى العقيدة .. لقد كفل لليهود والنصارى الحرية المطلقة فى ممارسة شعائرهم الدينية .. فلليهودى أن يذهب إلى كنيسه يوم السبت، وللمسيحى أن يذهب إلى كنيسته يوم الأحد وللمسيحى أو اليهودى الحق فى الانقطاع عن العمل يوم العيد كما أن لليهود والنصارى محاكمهم الخاصة فيما يتعلق بالزواج والطلاق ..

ومن هنا كان لأهل الذمة محاكمهم الخاصة يحتكمون إليها إن شاءوا وإلا لجأوا إلى القضاء الإسلامى .

يقول المؤرخ الغربى « آدم متز » [1] فى كتابه عن الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى »

ولما كان الشرع الإسلامى خاصاً بالمسلمين فقد خلت الدولة الإسلامية بين أهل الأديان الأخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم ، والذى نعلمه من أمر هذه المحاكم أنها كانت محاكم كنسية وكان رؤساء المحاكم والروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة أيضاً ، وقد كتبوا كثيراً من كتب القانون ، ولم تقتصر أحكامهم على مسائل الزواج بل كانت تشمل - إلى جانب ذلك - مسائل الميراث وأكثر المنازعات التى تخص المسيحيين وحدهم مما لا شأن للدولة به .

« على أنه كان يجوز للذمى أن يلجأ إلى المحاكم الإسلامية ، ولم تكن الكنائس بطبيعة الحال تنظر إلى ذلك بعين الرضا ، ولذلك ألف الجاثليق (تيموتيوس) حوالى عام ٢٠٠ هـ - ٨٠٠م كتاباً فى الأحكام القضائية المسيحية (لكى يقطع كل عذر يتعلل به النصارى الذين يلجأون إلى

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز ترجمة الدكتور أبى ريدة ج ١ ص ٨٥ - ٨٧ .

المحاكم غير النصرانية بدعوى نقصان القوانين المسيحية) إلى أن يقول :

« وفى عام ١٢٠هـ - ٧٣٨م ولى قضاء مصر خير بن نعيم ، فكان يقضى فى المسجد بين المسلمين ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر على المعارج فيقضى بين النصارى .. ثم خصص القضاة للنصارى يوماً يحضرون فيه إلى منازل القضاة ليحكموا بينهم ، حتى جاء القاضى محمد بن مسروق الذى ولى قضاء مصر عام ١٧٧هـ فكان أول من أدخل النصارى فى المسجد ليحكم بينهم » .

ثم قال متز :

« أما فى الأندلس فعندنا أكثر من مصدر جدير بالثقة .. أن النصارى كانوا يفصلون فى خصوماتهم بأنفسهم ، وأنهم لم يكونوا يلجأون للقاضى إلا فى مسائل القتل » .

وبهذا نرى أن الإسلام لم يجبرهم على ترك أمر يرونه فى دينهم واجباً ، ولا على فعل أمر يرونه عندهم حراماً ، ولا اعتناق أمر دينى لا يرون اعتقاده بمحض اختيارهم .

★ ★ ★

إن المساواة التى جاء بها الإسلام نابعة من صميم العقيدة الدينية التى يدين بها كل مسلم يؤمن بالله ورسوله .. فقد تعلم المسلمون من أصل دينهم أن الذى تعنو له الوجوه وتسجد فى حضرته الأرواح والأجساد وتستجيب لندائه وحكمه العامة والخاصة هو قيوم السماوات والأرض وحده وأن الخلق قاطبة ينتظم فى سلك العبودية المطلقة لله وحده .. وأن من حاول التطاول فوق هذه العبودية السارية فى الأشخاص والأشياء وجب قمعه حتى يستكين فى مكانته لا يعدوها .

﴿ إن كلُّ من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً * لقد

أحصاهم وعدهم عداً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾

[مريم : ٩٣ - ٩٥] .

وخالق البشر زودهم بقوى مختلفة ومواهب شتى ليختبر كل امرئ منهم فيما آتاه ، وليسأله يوم العرض ماذا عمل به ؟ فليس صاحب السلطة فى هذه الدنيا رجلاً محظوظاً شاءت له الأقدار أن يتحكم ، وليس صاحب الثروة رجلاً شاءت له الأقدار أن يتمتع ، لا فكلا الرجلين مختبر فى وضعه ، معرض للنجاح والفشل كأى إنسان آخر مؤاخذ أو مثاب وفق استقامته أو عوجه ، وعمله موضع الملاحظة الدقيقة من الله ومن الناس .

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

ثم إن المسلم فى نظرته إلى الناس قويهم وضعيفهم يعرف أن زمام أمورهم فى النهاية بين يدى الله ، وأن هذا الزمام لن يفلت منه أبداً ، ولن يستطيع أحد إسقاطه من بين يديه ، ومن ثم .. فهو متوجه برغبته ، أو رهبته ، وقلقه أو طمأنينته ، إلى الله وحده ، غير هياب لجبار عنيد ، أو ميال لذى بأس شديد قد وثق من قول الله له :

﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير * وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾ [الأنعام : ١٧ ، ١٨] .

بهذا الروح المفعم باليقين والإباء أبى الإنسان المسلم الاعتراف بأن لأحد من الخلق اختراق أسوار المساواة العامة ، والاستعلاء على غيره من الناس .

★ ★ ★

إن المساواة التى جاء بها الإسلام مساواة نابعة من جوهر العقيدة ومظاهرها المختلفة فى العبادات والمعاملات والآداب ومكارم الأخلاق .. فالصلاة تطبيق عملى لهذه المساواة التى تظهر فى وقوف الناس خلف الإمام صفوفاً منتظمة لا عوج فيها ولا انحراف .. الكل يتحرك بتحركات الإمام وليس فى هذه الصفوف مكان للملوك ومكان للسوقة ، كل إنسان يقف فى المكان الذى يريده ، وفى الصف الذى يسبق إليه .

والسجود الذى هو ركن من أركان الصلاة ، مثال آخر على تطبيق هذه المساواة فى صورة رائعة من التضرع والخضوع لله .. هذه الجباه التى تسجد وتلاصق مواطئ الأقدام وقد تلتقى بها أقدام المصلى أمامها .

هل تقبل ذلك فى غير الصلاة ؟

وهل تذل وتتعفر بتراب الأقدام إلا فى الصلاة ؟

هل أعفى الله من ذلك إنساناً ولو كان حاكم الدنيا بأمرها ؟

هل استثنى من ذلك مخلوقاً لأنه عزيز كريم لايطيق أن يضع جبهته عند مواطئ الأقدام ؟

كلا .. فالجميع فى ذلك سواء ، ولا يقبل الله صلاة عبد ما لم يكن مخلصاً لله فى ذله وانكساره ، وما لم يكن سعيداً قرير العين بوضع جبهته عند مواطئ الأقدام فى الصلاة ، والذى تشمئز نفسه من ذلك لا يقبل الله عمله وإن صلى مئات الركعات .

ولعل هذا هو السر فيما قاله الرسول عليه السلام : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » نعم وهو ساجد بجبهته على الأرض بهذه الهيئة يناجى ربه وخالقه ويشعر نفسه بذلك وحاجته إليه ..

وفى الصلاة التى يظهر فيها المصلون صفاً واحداً لا ينظر فيها إلى المظاهر ولا إلى قيمة الإنسان المادية ومركزه فى الحياة ، وإنما ينظر الله إلى الإنسان وما يحمل فى قلبه من الإخلاص والصفاء من الأحقاد والأضغان والتجرد لله عن كل ما سواه .

وهنا تبدو المساواة أمام الله بصورة أخرى لا تتصل بالسلطان والمال والجاه ، فرب أمير أو سلطان أو صاحب ملايين ، يقف بجانب فقير ضعيف رث الثياب مغبر الوجه فيدعو هذا ويدعو ذاك فيتقبل الله من الفقير المغبر الوجه المخلص القلب ولا يتقبل من صاحب السلطان والثروة والجاه لانشغال قلبه بغير الله ، إذا كان قلبه منشغلاً بغير الله .

وحين يفهم الغنى والفقير هذا المعنى يستشعر كل منهما روح المساواة الحقة أمام الله فيتلاقى الغنى مع الفقير فى وقفة خاشعة أمام الله تذوب فيها فوارق الجنس واللون والثروة والجاه .

هذا عن الصلاة التى جعلها الإسلام أول ركن من أركانه وأقواه بعد الشهادتين .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الصيام الذى فرضه الله .. هل أعفى منه الغنى للترف ، وجعل بدله هبة من المال يدفعها للفقراء وذوى الحاجة والعيال ؟

هل فرض على الفقراء صيام اليوم وفرض على الأغنياء والسادة صيام نصف اليوم ..؟

لا شيء من هذا كله ، لقد فرض الصيام على كل مستطيع ، وجعل البدء والنهاية واحدة للجميع .

ثم تعال معى إلى الحج ، وفيه الدرس الأكبر للمساواة بين الناس أجمعين ، لابد أن يتجرد الجميع من ملابسهم ، ثم يستروا أنفسهم بسترات متشابهة ، قد كشفوا رءوسهم وخلعوا أحذيتهم ولبسوا أحذية متشابهة كذلك ، ليس فيها مجال للأناقة ، ولا لمظهر الغنى ويؤدون أعمال الحج جميعاً دون تفرقة .

هل تعرف الغنى من الفقير ؟ هل تعرف الأمير من الحقير ؟ هل تعرف الملك من السوقة ؟ هل يحمل أحد نياشينه ليتميز بها على غيره فى الشكل والمظهر ؟

هذا هو الإسلام في عباداته التي كانت تأكيداً عملياً لما في عقيدته من الإخاء والمساواة بين جميع الناس .

ولما تولى أبو بكر الخلافة بعد رسول الله خطب الناس فقال :

أيها الناس ! إني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فتابعوني وإن أسأت فقوموني . .

القوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوي حتى آخذ الحق له . أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم .

وجاء عمر من بعده فقال : لوددت لو أني وإياكم في سفينة في لجة بحر تذهب بنا ـ شرقاً وغرباً فلن يعجز الناس أن يولوا رجلا منهم ، فإن استقام اتبعوه وإن جنف – مال عن الحق – قتلوه فقال طلحة :

وما عليك لو قلت : وإن تعوَّج عزلوه ؟ فقال عمر : لا . القتل أنكل لمن بعده .

وكتب عمر لأبي موسى الأشعري واليه على الكوفة :

يا أبا موسى . . إنما أنت واحد من الناس ، غير أن الله جعلك أثقلهم حملا . إن من ولي أمر المسلمين يجب عليه ما يجب على العبد لسيده .. !

وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان عندما ضاق الناس ببعض تصرفاته :

إني أتوب وأنزع فأرجع عن خطئي ولا أعود لشيء عابه المسلمون ، فإذا نزلت من منبري فليأتني رأيهم ، فو الله لئن ردَّني الحق عبداً لأذلن ذل العبيد . . !

وقال عمر بن الخطاب يوماً : ما قولكم لو أن أمير المؤمنين شاهد امرأة على معصية ؟ يعني أتكفي شهادته في إقامة الحد عليها ؟ – فقال له علي ابن أبي طالب :

يأتى بأربعة شهداء أو يجلد حد القذف ، شأنه فى ذلك شأن سائر المسلمين . .

إن هذه الثورة الإسلامية الهائلة فى سياسة الحكم هى التى أطلقت جيوش المسلمين من مكانها لهدم عروش الجبارين وإقرار مبدأ المساواة بين الناس .

إن أولئك المسلمين الأحرار عدوا القياصرة والأباطرة أصناماً ورأوا بإخلاصهم لكلمة التوحيد أن تتحول هذه الأصنام إلى أنقاض .

فليس من توحيد الله أن يثنى إنسان صلبه ثم يهوى على الثرى ليقبل نعل رجل تصفه الأساطير المبجلة بأنه إمبراطور . . والغريب أن تلك الصور التى هدمها الإسلام من قرون لا تزال لها بقايا بين الناس حتى الآن .. !!

كلمة التاريخ

« ... هذه هى مبادئ التسامح الدينى فى الإسلام الذى قامت عليه حضارتنا ، وهى توجب على المسلم أن يؤمن بأنبياء الله ورسله جميعاً ، وأن يذكرهم بالإجلال والاحترام ، وأن لا يتعرض لأتباعهم بسوء ، وأن يكون معهم حسن المعاملة رقيق الجانب ، لين القول ، يحسن جوارهم ، ويقبل ضيافتهم ، ويصاهرهم حتى تختلط الأسر ، وتمتزج الدماء ، وأوجب الإسلام على الدول المسلمة أن تحمى أماكن عبادتهم وأن لا تتدخل فى عقائدهم ولا تجور عليهم فى حكم ، وتسويهم بالمسلمين فى الحقوق والواجبات العامة ، وأن تصون كرامتهم وحياتهم ومستقبلهم كما تصون كرامة المسلمين وحياتهم ومستقبلهم .

لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وفيها من اليهود عدد كبير ، كان من أول ما عمله من شئون الدولة أن أقام بينه وبينهم ميثاقاً تحترم فيه عقائدهم وتلتزم فيه الدولة بدفع الأذى عنهم ، ويكونون مع المسلمين يداً

واحدة على من يقصد المدينة بسوء . فطبق بذلك رسول الله ﷺ مبادئ التسامح الدينى فى البذور الأولى للحضارة الإسلامية .

وكان للرسول جيران من أهل الكتاب ، فكان يتعاهدهم ببره ويهديهم الهدايا ويتقبل منهم هداياهم ، حتى إن امرأة يهودية دست له السم فى ذراع شاة أهدتها إليه ، لما كان من عادته أن يتقبل هديتها ، ويحسن جوارها .

ولما جاء وفد نصارى الحبشة أنزلهم رسول الله فى المسجد وقام بنفسه على ضيافتهم وخدمتهم ، وكان مما قاله يومئذ: إنهم إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين فأحب أن أكرمهم بنفسى .... !

وجاءه مرة وفد نصارى نجران فأنزلهم فى المسجد وسمح لهم بإقامة صلاتهم فيه فكانوا يصلون فى جانب منه ، ورسول الله والمسلمون يصلون فى جانب آخر . ولما أرادوا أن يناقشوا الرسول فى الدفاع عن دينهم استمع إليهم وجادلهم ، كل ذلك برفق وأدب وسماحة خلق .

وعلى هدى الرسول الكريم فى تسامحه الدينى ذى النزعة الإنسانية الرفيعة سار خلفاؤه من بعده . فإذا بنا نجد عمر بن الخطاب حين يدخل بيت المقدس فاتحا يجيب سكانها المسيحيين إلى ما اشترطوه : من أن لا يساكنهم فيها يهودى .

لاحظوا ... أن المسيحيين هم الذين ضاقوا باليهود ! .

وتحين صلاة العصر وهو فى داخل كنيسة القدس الكبرى ، فيأبى أن يصلى فيها كى لا يتخذها المسلمون من بعده ذريعة للمطالبة بها واتخاذها مسجداً .

ومن مظاهر التسامح الدينى أن كانت المساجد تجاور الكنائس ، وكان رجال الدين فى الكنائس يعطون السلطة التامة على رعاياهم فى كل شئونهم الدينية والكنسية ، لا تتدخل الدولة فى ذلك ، بل إن الدولة كانت تتدخل فى حل المشاكل الخلافية بين مذاهبهم وتنصف بعضهم من

بعض . فقد كان الملكانيون يضطهدون أقباط مصر فى عهد الروم ويسلبونهم كنائسهم ، حتى إذا فتحت مصر رد المسلمون إلى الأقباط كنائسهم ، وأنصفوهم ! .

وتطاول الأقباط بعد ذلك على الملكانيين انتقاماً مما فعلوه بهم قبل الفتح العربى فشكوا بذلك إلى هارون الرشيد فأمر باسترداد الكنائس التى استولى عليها القبط بمصر وردها إلى الملكانيين بعد أن راجعه فى ذلك بطريك الملكانيين ! .

« ... ومن مظاهر التسامح الدينى فى حضارتنا أن كثيراً من الكنائس كان يصلى فيها[1] المسلمون والمسيحيون فى وقت واحد إبان الفتح الإسلامى ، فقد رأينا كيف سمح النبى لنصارى نجران أن يصلوا فى مسجده بجانب المسلمين وهم يصلون صلاتهم ، وفى كنيسة يوحنا الكبرى فى دمشق التى أصبحت الجامع الأموى فيما بعد ، رضى المسيحيون حين الفتح أن يأخذ المسلمون نصفها ، ورضى المسلمون أن يصلوا فيها صلاتهم ، فكنت ترى فى وقت واحد أبناء الديانتين يصلون متجاورين : هؤلاء يتجهون إلى القبلة ، وأولئك يتجهون إلى الشرق ، وإنه لمظهر عجب فريد فى التاريخ له مغزًى عميق فى الدلالة على التسامح الدينى الذى بلغته حضارتنا ! .

ومن مظاهر التسامح الدينى أن كانت الوظائف تعطى للمستحق الكفء بقطع النظر عن عقيدته ومذهبه ، وبذلك كان الأطباء المسيحيون فى العهدين الأموى والعباسى محل الرعاية لدى الخلفاء ، وكان لهم الإشراف على مدارس الطب فى بغداد ودمشق زمنا طويلا . كان ابن أثال الطبيب النصرانى طبيب معاوية الخاص . وكان « سرجون » كاتبه وقد عين مروان « اثناسيوس » مع آخر اسمه إسحاق فى بعض مناصب الحكومة فى مصر ، ثم بلغ مرتبة الرئاسة فى دواوين الدولة ، وكان عظيم الثراء واسع الجاه ،

(١) من روائع حضارتنا – للمرحوم الدكتور الشيخ مصطفى السباعى فصل : التسامح الدينى .

حتى ملك أربعة آلاف عبد وكثيراً من الدور والقرى والبساتين والذهب والفضة ، وقد شيد كنيسة فى « الرها » من إيجار أربعمائة حانوت كان يملكها فيها ، وبلغ من شهرته أن وكل إليه عبد الملك بن مروان تعليم أخيه الصغير عبد العزيز الذى أصبح واليا على مصر فيما بعد وهو والد عمر بن عبد العزيز .

ومن أشهر الأطباء الذين كانت لهم الحظوة عند الخلفاء جرجيس بن بختيشوع ، وكان مقرباً من الخليفة المنصور واسع الحظوة عنده ، يحرص على راحته وسروره ، حتى كان لجرجيس زوجة عجوز ، فأرسل إليه المنصور ثلاث جوار حسان فرفض قبولهن قائلا : إن دينى لا يسمح لى بأن أتزوج غير زوجتى ما دامت فى الحياة ، فسر منه المنصور وازداد له إكراماً ، ولما مرض أمر المنصور بحمله إلى دار العامة (أى دار الضيافة) ، وخرج إليه ماشيا يسأل عن حاله ، فاستأذنه الطبيب فى رجوعه إلى بلده ليدفن مع آبائه . فعرض عليه المنصور أن يسلم ليدخل الجنة ، فأبى وقال : رضيت أن أكون مع آبائى فى جنة أو نار ، فضحك المنصور وأمر بتجهيزه ووصله بعشرة آلاف دينار . !

وكان سلمويه بن بنان النصرانى طبيب المعتصم ، ولما مات جزع عليه المعتصم جزعاً شديداً ، وأمر بأن يدفن بالبخور والشموع على طريقة ديانته .

وكان بختيشوع بن جبرائيل طبيب المتوكل وصاحب الحظوة لديه ، حتى إنه كان يضاهى الخليفة فى اللباس وحسن الحال وكثرة المال وكمال المروءة .

وكانت الحلقات العلمية فى حضرة الخلفاء تجمع العلماء من أهل الديانات والمذاهب كلها ، وكان يقول لهم : ابحثوا ما شئتم من العلم من غير أن يستدل كل واحد منكم بكتابه الدينى ، كى لا تثور بذلك مشاكل طائفية .

ومثل ذلك كانت الحلقات العلمية الشعبية . قال خلف بن المثنى : لقد شهدنا عشرة فى البصرة يجتمعون فى مجلس لا يعرف مثلهم فى الدنيا علماً ونباهة وهم الخليل بن أحمد صاحب النحو (وهو سنى) ، والحميرى الشاعر (وهو شيعى) ، وصالح بن عبد القدوس (وهو زنديق ثنوى) ، وسفيان بن مجاشع (وهو خارجى صفرى) ، وبشار بن برد (وهو شعوبى خليع ماجن) وحماد عجرد (وهو زنديق شعوبى) . وابن رأس الجالوت الشاعر (وهو يهودى) وابن نظير المتكلم (وهو نصرانى) وعمر بن المؤيد (وهو مجوسى) وابن سنان الحرانى الشاعر (وهو صابئى) ، كانوا يجتمعون فيتناشدون الأشعار ويتناقلون الأخبار ، ويتحدثون فى جو من الود لا تكاد تعرف منهم أن بينهم هذا الاختلاف الشديد فى دياناتهم ومذاهبهم .

ومن مظاهر التسامح الدينى فى حضارتنا الاشتراك بالأعياد الدينية بمباهجها وزينتها ، فمنذ العهد الأموى كانت للنصارى احتفالاتهم العامة فى الشوارع تتقدمها الصلبان ورجال الدين بألبستهم الكهنوتية ، وقد دخل البطريرك ميخائيل مدينة الإسكندرية فى احتفال رائع وبين يديه الشموع والصلبان والأناجيل ، والكهنة يصيحون : وقد أرسل الرب إلينا الراعى المأمون الذى هو مرقس الجديد ، وكان ذلك فى عهد هشام بن عبد الملك .

ويذكر لنا المقريزى فى خططه أن الناس – فى عهد الإخشيديين – كانوا يحتفلون بعيد الغطاس احتفالا كبيراً ، فى عام ٣٣٠ هـ جرى الاحتفال بعيد الغطاس احتفالا رائعاً وجلس محمد بن طغج الإخشيدى بقصره المختار فى جزيرة المنيل ، وقد أسرج حوله ألف قنديل ، وجاراه الشعب فأوقد المشاعل والقناديل والشموع ، وزخرت القوارب بآلاف من النصارى والمسلمين ، ولم يبق من كثرة الناس موضع لقدم على سطوح الدور وشواطئ النهر ، ولبس الجميع أحسن ما عندهم من الثياب وأبهجها ،

وأخرجوا الكثير من المأكل والمشرب ووضعوهما فى أوان من الفضة والذهب ، وكانت ليلة لم تغلق فيها الدروب ، وغطس معظم الناس اعتقاداً منهم أن الاستحمام ليلة الغطاس أمان من المرض وإبراء من الداء .

وهذه شهادة المنصفين

يقول المستر « درابر » الأمريكى المشهور : إن المسلمين الأولين فى زمن الخلفاء لم يقتصروا فى معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام ، بل فوضوا إليهم كثيراً من الأعمال الجسام ورقوهم إلى مناصب الدولة ، حتى إن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا بن ماسويه ، ولم يكن ينظر إلى البلد الذى عاش فيه العالم ، ولا إلى الدين الذى ولد فيه بل لم يكن ينظر إلا إلى مكانته من العلم والمعرفة .

ويقول المؤرخ الشهير المعاصر (ولز) فى صدد بحثه عن تعاليم الإسلام : « (إنها أسست فى العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم ، وإنها لتنفخ فى الناس روح الكرم والسماحة، كما أنها إنسانية السمة ، ممكنة التنفيذ ، فإنها خلقت جماعة إنسانية يقل ما فيها مما يغمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعى عما فى أية جماعة أخرى سبقتها ...) » .

إلى أن يقول عن الإسلام : « إنه مليء بروح الرفق والسماحة والأخوة » ..

ويقول السر « مارك سايس » فى وصف الإمبراطورية الإسلامية فى عهد الرشيد : « وكان المسيحيون والوثنيون واليهود والمسلمون على السواء يعملون فى خدمة الحكومة » .

ويقول (ترنرن) : « لم يكن للدين دخل فى معاملة الشعراء والمغنين » .

ويقول (ليفى بروفنسال) فى كتابه « أسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر » : « إن كاتب الذم كثيراً ما كان نصرانياً أو يهودياً . وقد كانوا

يتصرفون للدولة فى الأعمال الإدارية والمالية ، ومن اليهود من كانوا ينوبون عن الخليفة بالسفارات إلى دول أوروبا الغربيــة » .

ويقول (رينـو) فى تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليـا وجزائر البحر المتوسط : « إن المسلمين فى مدن الأندلس كانوا يعاملون النصـارى بالحسنى كما أن النصارى كانوا يراعون شعور المسلمين فيختنون أولادهم ولا يأكلون لحم الخنزير »[1] ..

وبعـــد :

فإن كل كلمة قلتها هنا موثقة فى مصادرها الإسلامية الصحيحة .. لم أحاول الهروب باصطناع أحكام زائفة . أو ادعاء أقوال باطلة .. يمكنكم الذهاب إلى مكتبة الجامعة ... هناك توجد أكثر هذه المراجع ... فارجعوا إليها إن شئتم .. ولكن حذار من كتب الاستشراق .. إن أكثر المستشرقين لم يكتبوا لخدمة الحقيقة .. حتى المخلصون منهم لم يسلموا من ارتكاب أخطاء جسيمة ..

هذا هو الإسلام .. فاعرفوه كما سمعتم .. إن من معانى الإسلام الانقيـاد والخضـوع لأمر الله فى أى حكم .. ومعنى ذلك : أن أى مسلم ليس حرّاً فى الالتزام بهذه المبادئ أو رفض هذه المبادئ .. إنها ليست ترفاً أخلاقيّاً .. أو أسلوباً حضارياً ، إنها فرائض إلهية لابد أن تلتزم ، وأحكام سماوية لابد أن تراعى وتنفذ ..

أبو حنيفة المفترى عليه

« (ولكن ماذا عن أبى حنيفة ؟ نريد أن نعرف الحقيقة .. وهل يبيح بيع اليهودى أو المسيحى فى حال الضرورة والحاجة[2] ... ؟!!!

---

(١) من روائع حضارتنا : للمرحوم الدكتور مصطفى السباعى ص ٨٣ / ٩٢

(٢) لقد ورد هذا الافتراء فى كتاب المحامى الصليبى الفاشل .

قلت للآنسة « (ليليان) » والآنسة « (آن) » :

– لقد أجبت عن كل هذه الأسئلة سلفاً ... !

– لم نسمع هذه الإجابة ، ولم تشر إلى هذه القصة ..

وخيم الصمت مرة ثانية .. والتزم الجميع الهدوء فى انتظار إجابتى عن هذه الأسئلة ..

قلت للآنسة (آن) والآنسة (ليليان) :

– إن كل ما نطقت به ... وكل ما أشرت إليه كل هذا الذى قلته ، وكل هذا الذى شرحته هو من كلام أبى حنيفة . وأقوال أبى حنيفة .. !!

– ماذا تقول : ... ؟ أبو حنيفة قال هذا ... ؟

– نعم : قال هذا أبو حنيفة .. وكتب هذا أبو حنيفة .... وحين تراجعون كتبه الموجودة فى مكتبة الجامعة ، وتقارنونها بما كتب « يهوذا » فى هذه الصحيفة ستتضح لكم فى النهاية جريمة تزوير وقحة وقبيحة ... :

إن الإمام أبا حنيفة يعرف بين المسلمين باسم الإمام الأعظم .. الأعظم فكراً ... والأعظم سماحة ورأياً ...

لقد كان من جيرانه حيث يسكن رجل غير مسلم عرف بالعربدة والسكر . لم يكن أبو حنيفة ينام أكثر الليل بل يقضيه ساهراً يقرأ ويتعبد . أما جاره هذا فكان يقضى أكثر ليله فى الشراب وإثارة الضجيج والصخب ..

تصوروا .. رجلين فى مكان واحد .. أحدهما إمام جليل ذو شأن ، والآخر صعلوك تافه لا ينقطع عن إثارة الضجيج وشرب الخمر ..

إن القانون لا يسمح بهذا العبث . وهنا فى استراليا تجرم القوانين مثل هذا التصرف . لقد قرأت فى نصوص تأجير عقد المسكن الذى أقيم فيه الآن فى ضاحية « (أشفيلد) » نصاً يحذرنى من استخدام أجهزة الراديو والتلفزيون استخداماً يؤذى الغير .. ونصاً آخر يحذرنى من تشغيل ماكينة

الغسيل فى ساعة معينة من الليل .. إن حرية إصبعك كما يقول « فولتير » تنتهى عند عين غيرك .. !

إن الحرية المطلقة هى عين الفوضى .. بل هى « (الهمجية) » التى لا يقبلها أحد أبداً ..

وقد صبر أبو حنيفة على هذا الجار .. لقد كان من اليسير أن يسكته بإشارة .. أو يحول منزله إلى جهة أخرى من المدينة .. ولكن أبا حنيفة إمام مسلم .. ويعنى جيداً ما أوصى به الرسول كل مسلم . وقد أوصى الرسول بإكرام الجار حتى وإن كان هذا الجار غير مسلم ..

وذات ليلة .. افتقد أبو حنيفة صوت جاره . ولم يسمع ضجيجاً أو صخباً فى بيته ... لقد تعود الإمام على صخب جاره ، وراض نفسه على احتمال أذاه وإساءته . وبإحساس المسلم ، وبعاطفة « الإمام » الذى لا يفرق بين مسلم وغير مسلم .. غادر أبو حنيفة بيته .. ترك ما فى يده من كتب ، وقطع عبادته وخرج .. فعل ذلك كله ليطمئن على جاره .. فمن يدرى ؟ لعله أصيب بمرض ، أو نزلت به كارثة تحول بينه وبين الغناء والطرب .... !!!

وهنا جاء الخبر .. لقد تبين أنه قبض عليه بتهمة العربدة . وأنه سيق إلى مقر الشرطة لاتخاذ الإجراءات ضده ..

وهنا كانت المفاجأة ...

لقد قال الإمام لقائد الشرطة :

– كيف تسجنون جار أبى حنيفة .. ؟

– وهل حدث هذا يا مولانا .. ؟

– نعم حدث ...

– نحن لم نقبض إلا على رجل بتهمة العربدة والسكر وهو غير مسلم ..

– هذا هو جارى الذى جئت من أجله ..

وهنا نادى قائد الشرطة أعوانه ثم أمر بإطلاق سراح جار أبى حنيفة ، وإطلاق سراح كل من قبض عليهم فى هذا اليوم إكراماً لأبى حنيفة .. !!

وماكاد الرجل يرى أبا حنيفة حتى سقط مغشيًا عليه . ثم أفاق بعد ذلك ليقبل رأس الشيخ ويتوب على يديه ..

* * *

مستر كلارك ومستر طومسون :

- إنها قصـة رائعـة لفيلم رائـع ..؟!

- إن الحوار لم ينته بعد .. فلا تزال الآنسة فيفيان مثقلة بالأسئلة التى تنتظر الجواب والرد . فهل توافقون على الحضور غـداً أم بعـد غـد ... ؟

- بعـد غـد .. يوم السبت ...

- نلتقى بمشيئة الله بعـد غـد ....

★ ★ ★

الحلقة الثانيـة من الحوار

* صدق أو لا تصدق.
* مصر وشعبها فى قفص الاتهام ..
* المودة بين المسلمين والمسيحيين فى مصر
* قراءة فى الكتاب الأسود ..
* كيف دخل الإسلام مصر .. ؟
* الاضطهاد الرومانى للأقباط ..
* ترحيب المصريين بالفتح الإسلامى المنقذ ..
* أصل المسلمين فى مصر .. ؟
* المسلمون والمسيحيون فى مصر كلهم أقباط !
* صوت من مصر ..
* نموذج من الحبشة ... !
* مؤلف الكتاب الأسود يناقض نفسه ..
* الإحصاء العام فى مصر بين الحقيقة والتزييف
* الغـرب يؤصل الحـقـد والكراهيـة بين المسلمين والمسيحيين ..
* ليس للأقلية أن تفرض إرادتها على الأغلبية !
* غير المسلمين يضطهدون المسلمين مثل من الحبشة

صدق ... أو ... لا تصدق :

ولكن هذا الذى ترفض تصديقه .. وتنكر أذناك صوته ، ستراه بعينك وتسمعه بأذنك .. وتعيش فيه إن قدر لك أن تهاجر أو تسافر إلى بلد مثل استراليا .. أو كندا أو أمريكا .. أو حتى جمهورية كوستاريكا . !

قد يقرأ هذه الصفحات قارئ غير مسلم ... وقد يكون هذا القارئ مسيحياً مصرياً ... أو لبنانياً .. يونانياً .. أو إيطالياً .

إن « ذرة » واحدة من الإنصاف عند أى قارئ من هذه الجنسيات جميعاً ستجعله يضحك .. هذا إن كان مهذباً رقيقاً .. !

وقد تصدر عنه حركة لا شعورية يلعن بها الظروف التى جمعت بينه وبين « بعض » هؤلاء الناس جميعاً . !

هذا « البعض » الذى يعيث فساداً فى أرض المهجر ... ويسىء إلى الدين . والوطن . لمجرد الإساءة ، وشهوة الجنون والمغامرة ...

هذا البعض موجود هناك .. وراء البحار .. فى شمال الأطلنطى أو جنوب المحيط الباسفيكى . وفى مدن مثل « سيدنى » « وملبورن » فى « استراليا » أو « واشنطن ونيورك » فى أميريكا . أو « كويبك » « وأوتاوا » فى كندا أو « لندن » و« جلاسجو » فى بريطانيا ... لم أصدق ما أرى ، كما لم أصدق من قبل ما قرأت ..

مصر وشعبها فى قفص الاتهام

كنت أتابع ما ينشر خارج أرض الوطن عن طبيعة الحياة بين أبناء هذا الوطن .. كانت تصلنى من حين لآخر بعض الصحف ... وكنت أستمع من حين لآخر إلى بعض الإذاعات . وكثيراً ما كانت تصلنى خطابات خاصة وقد شحنت بالأكاذيب والافتراءات عن المعاملة الهمجية التى يعامل بها المسيحيون من الأقباط .. !

لاحظ أننى قلت : المسيحيون من الأقباط .. فلهذا التعبير أهمية كبرى ستنكشف .. وحقيقة تاريخية ستوضح وتشرح ..

عن أى شىء كان يتكلم هذا البعض ؟ وإلى من .. من الناس كانوا يوجهون حملات التشكيك والحقد ... ؟

واسمح لى أيها القارئ أن أضع نفسى فى مواجهة هذا الصنف ... لا أقول هذا ادعاءً لفخر ، أو طلباً لوجاهة مزيفة أتفوق بها على الغير .. بل أفعل ذلك انطلاقاً من إيمان راسخ .. وعاطفة مصرية أصيلة ..

ثم .. لأنى تعلمت فى الأزهر .. وأكملت دراستى فى الخارج .. ودرست أكثر الديانات والمذاهب ، ولى فى ذلك تجارب سابقة مع كل الناس ...

المودة بين المسلمين والمسيحيين فى مصر

لقد قلت فى رسالتى إلى البابا بولس السادس [1].. فى أعقاب الحوار الإسلامى المسيحى الذى دار بين كرادلة الفاتيكان وعلماء الأزهر .

« ... لقد نشأت فى قرية من قرى مصر الطيبة فى أعماق هذا الريف المعطر بالإخاء والوفاء والمحبة .. وقد تفتحت عيناى على صورة من صور هذا الإخاء والمحبة لا تزال عالقة بذهنى حتى هذه اللحظة .. لقد تركت هذه القرية منذ سنوات بعيدة .. ورحل عن الدنيا أكثر الرجال الذين عرفتهم فى هذه الفترة .. غير أنى لم أزل أذكر هذه العلاقات الحميمة التى نشأت بين والدى وأصدقائه من نصارى هذه القرية .. وكيف كانوا يثقون فى والدى المسلم أكثر من إخوانهم فى الدين والملة ..

كان « حنا » « وجبران » و « بانوب » شركاء معه فى التجارة ، وكان « أيوب » وأخوه « ميخائيل » من أخلص مساعديه فى عمله .. وكنت فى طفولتى لا أهنأ بطعام لا يشاركنى فيه « بشرى » زميلى فى « كتاب

---

(١) رسالة إلى البابا بولس السادس ... من نشر دار الأنصار - القاهرة ١٣٩٨ هـ ١٩٨٧ م .

القرية » وابن « حنا » الصراف الذى كان لا يفارق والذى أكثر ساعات اليوم والليلة .

لقد رحلوا جميعاً عن الدنيا .. ولم يبق من هذه الصحبة القديمة إلا المعلم « بانوب » تاجر القطن الشهير فى القرية . والذى بلغ من العمر تسعين سنة ..

وأذكر .. أننى حين تركت هذه القرية إلى القاهرة فى أولى مراحل دراستى الدينية بالجامعة الأزهرية .. كثيراً ما كنت ألتقى بالقسوس والكهنة من رجال الكنيسة القبطية .. لم أكن أشعر مطلقاً تجاه هؤلاء القسوس والكهنة بأى لون من مشاعر البغض والكراهية .. كنا نتكلم دائماً فى مسائل وطنية وإنسانية ثم تتسع هذه المناقشات لتشمل شئون عائلاتنا الخاصة . وما يجب عمله لتعميق معنى الإخاء والمحبة بين عنصرى الأمة المصرية .

ولأول مرة فى حياتى بدأت أقرأ إنجيل « متى » و« مرقص » و« يوحنا » و « لوقا » .. لم أكن أشعر بأية غضاضة أن أحتفظ فى مكتبى بأناجيل المسيحية إلى جوار القرآن الكريم كتاب المسلمين المقدس .. ولا تزال مكتبتى حتى هذا اليوم تضم نسخة من هذه الأناجيل موقعاً عليها من الأب جبران الكاثوليكى العقيدة والمذهب .

وفى أوائل الخمسينات حين كنت طالباً فى كلية أصول الدين .. كان مبنى هذه الكلية ملحقاً بمسجد الخازندارة بحى شبرا .. ذهبت ومعى عشرون طالباً إلى كنيسة القديسة « تريزا » التى تبعد قليلا عن الكلية والمسجد .

لقد فوجىء الكهنة والرهبان بهذه الزيارة ، وبدت على وجوههم الدهشة من هذه المفاجأة .. وارتسمت علامة استفهام كبيرة شملت المكان كله من المذبح إلى برج الكنيسة .. ؟ !

غير أنى شرحت لهم قصة قدومنا ببساطة ..

قلت لهم : إنكم جيراننا ، وللجار حقوق مقدسة ، ثم إنكم ضيوف فى

بلدنا .. وللضيوف حقوق مؤكدة . فوق هذا كله فنحن جميعاً رعية الله وكلانا يدعو إلى ملكوته حسب إيمانه ومعتقده ..

لقد جئنا إلى هنا لنعلن حقيقة يجهلها أكثر الناس عن « نبى الإسلام » فنبينا محمد ﷺ كان يستقبل النصارى فى مسجده ، ويترك لهم حرية العبادة فيه ، فكانوا يصلون صلاتهم فى جانب منه ، ورسول الله وأصحابه يصلون فى جانب آخر ، فأى غضاضة أن نحضر إليكم ، أو تجيئوا إلينا ؟ فإذا كان الله « محبة » كما يقول المسيحيون .. فإن هذه « المحبة » فى نظر المسلمين هى أعلى درجات الإيمان والتقوى . .

لقد مضى على هذا اللقاء بأغبطة البابا أكثر من ثلاثين عاماً ، ربما كان ذلك فى عهد سلفك البابا بيوس الثانى عشر على ما أذكر .

لم تكن دعوات التقارب بين الكنيسة الكاثوليكية واليهود قد ظهرت .. ولم تكن دعوات التفاهم بين كنيسة روما وغيرها من كنائس المسيحية قد عرفت .. ولم تكن فكرة عقد مؤتمرات .. بين الإسلام والمسيحية قد ذاعت واشتهرت .. ذلك لأن هذا التقارب أو التفاهم بين المسلمين والنصارى مقرر سلفاً فى شريعتنا ، ومودة المسلمين للنصارى من السمات البارزة فى عقيدتنا وحضارتنا .

« لتجدنَّ أشد الناس عداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا ، ولتجدنَّ أقربَهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى .. ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » .

صحيح أن هذه الآية نزلت فى قوم من النصارى أسلموا ..

وهم الذين تعنيهم كلمة « منهم » فى الآية الكريمة . ولكن يبقى الحكم العام – بعد ذلك – وهو تأكيد مودة النصارى للمسلمين . ومودة المسلمين للنصارى .

وهناك صورة أخرى لتأكيد هذه المودة بين المسلمين والنصارى وردت فى سورة « الروم » ، حين وقعت الحرب بين دولة الفرس ، ودولة الرومان .

لقد انهزم الروم فى الواقعة الأولى بينهم وبين الفرس ، وفرح مشركو مكة الذين كانوا يحاربون النبى محمداً ويناصبونه العداء لهذا الانتصار ؛ لأن الفرس من وجهة نظرهم قوم لا يؤمنون بكتاب سماوى ، وقد انتصروا على الروم الذين كانوا قد اعتنقوا المسيحية .. ومعنى هذا .. أنهم سينتصرون فى حربهم على محمد كما انتصر الفرس على الروم .. وقد حزن المسلمون لذلك أشد الحزن ، ودعوا الله أن ينصر « الروم » أى : النصارى على الفرس .

وجاء الجواب من السماء مؤكداً قدوم ذلك النصر :

﴿ غلبت الروم * فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين ﴾ وكانت بشارة من الله للمسلمين بالنصر ، وللروم بالانتصار على الفرس ..

بل حدث قبل ذلك بسنوات أن ذهبت إلى جار مسيحى أهنئه « بعيد الفصح » وكنت فى هذه الفترة أعمل رئيساً للسكرتارية الفنية بمكتب شيخ الأزهر ..

حدث .. أن جاء راعى الكنيسة إلى هذا الجار يهنئه بهذه المناسبة .. لم يكن هذا القسيس يعرفنى – فقد التقينا معاً فى مناسبة واحدة لأداء واجب .. وإن اختلفت أسباب هذا اللقاء والمجىء بالنسبة للشيخ .. والراهب .. !

لقد بدأ القسيس كلامه :

– أنت لم تحضر إلى الكنيسة منذ ثلاثة آحاد يا « حنّا » ؟ !

– كنت مريضاً ...

– ولماذا لم تخبرنا ... ؟

– البركة فى جيراننا .

– المسلمون ... ؟

– نعم يا أبانا ... ؟

وقبل أن يتطور الحوار إلى أبعد ... ويفسر انقطاع « حنا » عن

الكنيسة بأسباب تتصل بالعقيدة والمذهب ... !!!

تكلمت إلى « حنا » مستشهداً بأقوال الرسل ... ووصايا الحواريين ... وضرورة حضور « قداس الأحد » .

... و ... لم يتركنى الأب ميخائيل أكمل .. لقد انجذب بشدة وصافحنى بحرارة .. ثم قال وهو يضغط على يدى بقوة :

– إنك ابن مبارك .. لماذا لا أراك فى الكنيسة ؟ .. !!

– حاسب يا أبانا .. لقد نسيت أن أعرفك بجارى .. إنه فلان سكرتير شيخ الأزهر ... !!!

***

لم يحدث فى التاريخ مثل هذا التعاطف بين طائفتين مختلفتين مذهباً وعقيدة ، بل لم يحدث مثل ذلك بين الطوائف المسيحية المختلفة ، ولماذا أذهب بعيداً ...وحروب الكراهية لا تزال دائرة حتى هذا اليوم فى « ألستر » وسباق القتل بين البروتستانت والكاثوليك فى « بلفاست » لم يهدأ ولم يفتر ... ؟

قراءة فى الكتاب الأسود

كنت أفكر فى هذا كله أثناء ركوبى القطار من أشفيلد AShfield فى طريقى إلى شارع الكومونولث Commonwealthst. حيث كان اللقاء الثانى مع طلبة وطالبات كلية الحقوق – يوم السبت . لقد سبقونى هذه المرة إلى المسجد . ووجدتهم جميعاً يقرءون فى الكتاب الأسود ... !!!

وبصوت مرتفع .. بين صمت مطبق .. بدأت الآنسة فيفيان تقرأ .. وتعيد ما تقرأ ..

إن الحكومة المصرية – تطبيقاً لأحكام دين الدولة الرسمى – ترتكب فى حق الأقباط الكثير الذى نجتزئ منه ما يأتى :

١ – فهى تحرمهم حق الحياة .. !

٢ – وهى – أى الحكومة المصرية – تغير الحقيقة فى تعدادهم ..!

٣ - وتحرم المسيحيين حقهم فى المساواة مع المسلمين فى نشر وإذاعة عقيدتهم .

٤ - وهى تؤثر المسلمين بالعطلات الرسمية فى المواسم والأعياد الدينية بينما يحرم المسيحيون من هذه العطلات أيام أعيادهم .

٥ - وتهاجم المسيحية من الكتاب والمؤلفين والمذيعين - دون إعطاء فرصة للمسيحيين للرد على ما يثار ضد عقيدتهم ..!

٦ - وتفرض الحكومة على الأحزاب تبنى الدعوة والمطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية التى تهدد المسيحيين فى عقيدتهم وحياتهم ..!

٧ - وتحرم الحكومة الأقباط من الفرص المتكافئة فى الكليات الممتازة .. وفى كلية البوليس والحربية ، وفى البعثات التعليمية ، وفى السلك الدبلوماسى .. وفى الوظائف الرئاسية .. إلخ .

وقد أنشئت الجامعة الأزهرية .. ومافتئت تنمو وتتفرع ، وتتيح الفرص لمئات الألوف من الطلبة المسلمين .. ليس بينهم قبطى واحد ..!

وتفرض - أى الحكومة - تعليم الدين الإسلامى فى جميع الكليات والمعاهد كمادة أساسية .. للمسلم والمسيحى ، فمن أهمل من المسيحيين هذه المادة ولم يذاكرها مذاكرة جيدة .. رسب فى الامتحان ، ولم ينقل إلى صف أعلى ..

كما أن الحكومة المصرية لا تسمح لأى مصرى بالتعاقد مع أية حكومة أخرى إلا إذا كان حافظاً للقرآن .. أى مسلماً .

[انتهى .. من الكتاب الأسود : ٩ - ١١]

مستر كلارك :

- أعتقد أن أكثر هذه الأسئلة قد سبقت الإجابة عليها فى لقائنا السابق .. اللهم إلا إذا كانت الحكومة المصرية تعامل رعاياها خلافاً لما قلت .. وخلافاً لما شرعه الإسلام فى معاملة غير المسلمين - فى بلد عريق - كمصر ..!

- شكراً للمستر كلارك ، لقد قررت الحقيقة التى لا يختلف عليها أحد من الحكام والحكومة فى مصر .. وأظن أنكم سمعتم بهذا الخطاب الذى ألقاه رئيس الجمهورية حول هذه القضية بالضبط [عام ١٩٨٠م] .

- لقد قرأنا ملخصاً لهذا الخطاب فى سيدنى مورننج هيرالد .. وهو نفس ما سمعناه هنا قبل اليوم ، واختصاراً للوقت فإننا نفضل حصر نقاط الحوار فى الأمور التى لاتزال قيداً للشك وتحتاج إلى مزيد من الإيضاح والشرح مثلاً :

كيف دخل الإسلام مصر ؟

كيف دخل الإسلام مصر ؟

وما أصل المسلمين المصريين ؟

هل وفدوا مع الموجات الأولى للفتح .. أم هم مصريون فى الأصل ؟

وهل اعتنق هؤلاء الإسلام عن اقتناع وفهم ؟ أم فرض عليهم بالإكراه والضغط ؟

وما حقيقة عدد المسيحيين فى مصر ؟

وهل يمنحون نفس الفرص فى الجامعات ومعاهد العلم ؟

وهل تفرض عليهم دراسة الدين الإسلامى كمادة أساسية يتوقف عليها نجاح الطالب ؟

هل لا يسمح لأحد منهم بالسفر إلى الخارج ؟

- شكراً للآنسة مارى والسيدة روث .. وسأحاول الالتزام بما ذكرتماه بالضبط غير أنى سأتجاوز هذا الالتزام فى بعض النقاط إذا سمح الوقت ، وكانت هناك فرصة لمزيد من الإيضاح والشرح .

لم يكن دخول الإسلام مصر أو فتح العرب مصر أمراً مستغرباً من وجهة نظر الباحثين والدارسين عن الأسباب والخفايا وراء هذا الفتح .

إن مصر لم تكن بعيدة عن عرب الحجاز أو عرب اليمن منذ قديم الزمان ، كانت هناك دائماً تلك العلاقات والصلات التى لم تنقطع ، وقد

٣ - وتحرم المسيحيين حقهم فى المساواة مع المسلمين فى نشر وإذاعة عقيدتهم .

٤ - وهى تؤثر المسلمين بالعطلات الرسمية فى المواسم والأعياد الدينية بينما يحرم المسيحيون من هذه العطلات أيام أعيادهم .

٥ - وتهاجم المسيحية من الكتاب والمؤلفين والمذيعين - دون إعطاء فرصة للمسيحيين للرد على ما يثار ضد عقيدتهم ..!

٦ - وتفرض الحكومة على الأحزاب تبنى الدعوة والمطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية التى تهدد المسيحيين فى عقيدتهم وحياتهم ..!

٧ - وتحرم الحكومة الأقباط من الفرص المتكافئة فى الكليات الممتازة .. وفى كلية البوليس والحربية ، وفى البعثات التعليمية ، وفى السلك الدبلوماسى .. وفى الوظائف الرئاسية .. إلخ .

وقد أنشئت الجامعة الأزهرية .. ومافتئت تنمو وتتفرع ، وتتيح الفرص لمئات الألوف من الطلبة المسلمين .. ليس بينهم قبطى واحد ..!

وتفرض - أى الحكومة - تعليم الدين الإسلامى فى جميع الكليات والمعاهد كمادة أساسية .. للمسلم والمسيحى ، فمن أهمل من المسيحيين هذه المادة ولم يذاكرها مذاكرة جيدة .. رسب فى الامتحان ، ولم ينقل إلى صف أعلى ..

كما أن الحكومة المصرية لا تسمح لأى مصرى بالتعاقد مع أية حكومة أخرى إلا إذا كان حافظاً للقرآن .. أى مسلماً .

[انتهى .. من الكتاب الأسود : ٩ - ١١]

مستر كلارك :

- أعتقد أن أكثر هذه الأسئلة قد سبقت الإجابة عليها فى لقائنا السابق .. اللهم إلا إذا كانت الحكومة المصرية تعامل رعاياها خلافاً لما قلت .. وخلافاً لما شرعه الإسلام فى معاملة غير المسلمين - فى بلد عريق - كمصر ..!

- شكراً للمستر كلارك ، لقد قررت الحقيقة التى لا يختلف عليها أحد من الحكام والحكومة فى مصر .. وأظن أنكم سمعتم بهذا الخطاب الذى ألقاه رئيس الجمهورية حول هذه القضية بالضبط [عام ١٩٨٠م] .

- لقد قرأنا ملخصاً لهذا الخطاب فى سيدنى مورننج هيرالد .. وهو نفس ما سمعناه هنا قبل اليوم ، واختصاراً للوقت فإننا نفضل حصر نقاط الحوار فى الأمور التى لاتزال قيداً للشك وتحتاج إلى مزيد من الإيضاح والشرح مثلاً :

كيف دخل الإسلام مصر ؟

كيف دخل الإسلام مصر ؟

وما أصل المسلمين المصريين ؟

هل وفدوا مع الموجات الأولى للفتح .. أم هم مصريون فى الأصل ؟

وهل اعتنق هؤلاء الإسلام عن اقتناع وفهم ؟ أم فرض عليهم بالإكراه والضغط ؟

وما حقيقة عدد المسيحيين فى مصر ؟

وهل يمنحون نفس الفرص فى الجامعات ومعاهد العلم ؟

وهل تفرض عليهم دراسة الدين الإسلامى كمادة أساسية يتوقف عليها نجاح الطالب ؟

هل لا يسمح لأحد منهم بالسفر إلى الخارج ؟

- شكراً للآنسة مارى والسيدة روث .. وسأحاول الالتزام بما ذكرتماه بالضبط غير أنى سأتجاوز هذا الالتزام فى بعض النقاط إذا سمح الوقت ، وكانت هناك فرصة لمزيد من الإيضاح والشرح .

لم يكن دخول الإسلام مصر أو فتح العرب مصر أمراً مستغرباً من وجهة نظر الباحثين والدارسين عن الأسباب والخفايا وراء هذا الفتح .

إن مصر لم تكن بعيدة عن عرب الحجاز أو عرب اليمن منذ قديم الزمان ، كانت هناك دائماً تلك العلاقات والصلات التى لم تنقطع ، وقد

لعبت الهجرات المتتابعة دوراً كبيراً فى دعم العلاقة بين هذه البلدان عبر مراحل متقدمة فى التاريخ ، وقبل أن يظهر الإسلام بعشرات القرون ، وقبل أن تدوى كلمة التوحيد فى مكة المكرمة على لسان سيدنا محمد رسول الله ﷺ .

وقد ذكر المؤرخ اليونانى (شرابون) المتوفى سنة ٢٥م ، والذى زار مدينة «قفط» قبل مولد المسيح بفترة فقال : إنها مدينة نصف عربية !!!

كما يحدثنا « الكندى » فى تاريخه فيقول فى « كتاب الولاة وكتاب القضاة » :

إن جماعة من العرب منهم المغيرة بن شعبة ، وعثمان بن عفان زاروا مصر للتجارة أيام الجاهلية .

وهناك قصة طريفة ذكرها ابن عبد الحكيم عن السبب الذى جعل ابن العاص مولعاً بفتح مصر فقال :

« إن عمرو بن العاص زار مصر فى عهد الجاهلية بدعوة من أحد رجال الدين المسيحيين الذى التقى به – أى بعمرو بن العاص – فى مدينة القدس وتعرف عليه بعد خدمات جليلة قدمها عمرو إلى هذا الرجل ، فأخذه الرجل معه إلى مصر ، ثم سافر به إلى الإسكندرية وشهد فيها عمرو عيداً عظيماً من أعيادها يجتمع فيه ملوكهم وكبراؤهم ، ولهم « كرة » من ذهب يترامى بها ملوكهم ، ويتلقونها بأكمامهم ، وكان فى اعتقادهم أن من وقعت الكرة فى كمه لم يمت حتى يملكهم ، فلما جلس عمرو بن العاص مع الناس فى هذا المجلس أقبلت الكرة تهوى حتى وقعت فى كم عمرو بن العاص ..!!

واضح من هذه المقدمة أنه كانت هناك علاقات قديمة وروابط وثيقة بين الشعب المصرى وبين العرب ، بل أكد بعض المؤرخين – من غير المسلمين أن أصل الشعب المصرى من العرب الذين وفدوا إلى مصر فى

موجات متتالية ، وفى عصور سحيقة متقدمة .

من هؤلاء المؤرخين « بريستو » الذى ذكر فى كتابه « تاريخ مصر من أقدم العصور » : أنه من الثابت أن هذه الهجرات – من العرب – قد تكررت مراراً ... و ... وإذا كان من الصعب معرفة الطريق التى سلكوها ، فإن الأقرب إلى الذهن أن يكونوا أتوا من برزخ السويس كما فعل العرب فى بداية الإسلام (١) .

ومن ذلك أيضاً ما قاله « ماسبيرو » المؤرخ الفرنسى الشهير ، الذى أكد أن بين المصريين القدماء والعرب روابط تشد بعضها إلى بعض ، وليس المصريون القدماء سوى ساميين انفصلوا من عهد الساميين قبل غيرهم (٢) .

وفى كتاب « مصر والحياة المصرية القديمة » يقول المؤلفان أرمان وهرمان رانكن :

« إن تشابه الحوادث فى العصر التاريخى يسوغ القول بأن أجناس البدو الذين عاشوا فى البلاد المتاخمة لمصر فى بلاد العرب قد انحدروا إلى وادى النيل الخصيب فى عصور ما قبل التاريخ (٣) .

إنها حقيقة تاريخية كان ولا بد من الإشارة إليها .. إشارة نستأنس بها على الأقل فى معرض هذا الحوار وفى تجلية وجه الحقيقة الذى طمرته الأتربة والأحجار .

لقد كان فتح مصر ضرورياً بعد أن استتب الأمر للمسلمين فى بلاد الشام « سوريا وفلسطين » فى عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولأسباب بعيدة كل البعد عن تلك الأسباب التى تحمل الغزاة والفاتحين عادة على الغزو أو الفتح ، إنه جانب روحى يحمل فى ثناياه معنى القدامة والإعزاز لهذا البلد الكريم الذى اسمه « مصر » .

---

(١) عروبة مصر فى التاريخ – محمد عزة دروزة – ص١١ .

(٢) المصدر السابق ص ١٧ .
(٣) المصدر السابق ص ١٤ .

فقد ذكر الكندى وغيره من المؤرخين أن الله ذكر فى كتابه العزيز فى أربعة وعشرين موضعاً منها ما هو بصريح اللفظ ، ومنها ما دلت عليه القرائن والتفاسير .

أما ماورد فى حقها من الأحاديث النبوية فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« ستفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً »

وقد ذكر الإمام ابن كثير فى شرحه لهذا الحديث ما نصه :

« المراد بالرحم أنهم أخوال إسماعيل بن سيدنا إبراهيم الخليل عليهما السلام فقد كانت أمه أى أم إسماعيل (هاجر) مصرية وهو أى إسماعيل « والد » عرب الحجاز الذين منهم - النبى ﷺ - وهم أى المصريون أخوال إبراهيم ابن رسول الله ﷺ لأن أمه مارية كانت مصرية أهداها المقوقس حاكم مصر حين بعث برده على رسالة النبى .

وقال ﷺ فى ذكر فضائل مصر :

« إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً ، فذلك خير أجناد الأرض ، فقال له أبو بكر - رضى الله عنه - : ولم ذلك يارسول الله ؟

فقال ﷺ : لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة »

فإذا كان لمصر هذه القداسة فى كتاب الله الكريم ، وكانت لها هذه المنزلة فى قلب النبى الرحيم ، وكان أجنادها هم خير أجناد الأرض كما صور ذلك الرسول فى حديثه الشريف ، فإن فتح مصر فى هذه الحالة يصبح تجسيداً عاطفياً لتلك الروابط الروحية الباهرة .. وتأكيداً لتلك العواطف التاريخية القديمة .

أضف إلى ذلك تلك الرسالة التى بعث بها النبى إلى المقوقس يدعوه

فيها إلى الدخول فى الإسلام ، وما نسب إلى بعض حكماء العرب من أن مصر هى شبه الجنة فى هذه الأرض ، وأن سلطان مصر سلطان الأرض كلها فى الشرق والغرب .

لقد كانت هناك جملة كبيرة من البواعث وراء هذا الفتح .. كان هناك هذا الباعث « النفسى » الذى يجعل من مصر جنة من جنان الدنيا ، وشبهها قريب لما يروى عن الفردوس الأعلى .

ولكن .. هل كان ذلك كافياً للإقدام والفتح ؟

بالطبع لا .. فقد كان ثمة عامل آخر من أهم العوامل التى هيأت الظروف لهذا الفتح ، وفتحت قلوب المصريين أمام المسلمين الذين قدموا يحملون راية الإخاء والتسامح والعدل .

الاضطهاد الرومانى للأقباط

كانت مصر قبل قدوم العرب ولاية بيزنطية ، ولم تكن نظرة الأباطرة البيزنطيين إلى الشعب المصرى أكثر من نظرة السيد إلى العبد ، ولم تكن العلاقة بين الحاكم والشعب تتجاوز تلك العلاقة الكئيبة بين الأجير المكدود والمالك المستبد .

كانت مصر فى نظر هؤلاء الحكام مزرعة لإنتاج القمح ، وبقرة حلوباً تمد هؤلاء الطغاة باللبن واللحم .

وقد عومل الشعب المصرى بوجه عام معاملة المغلوب على أمره : لم يكن له رأى فى الحكم ، ولا أثر لوجوده فى السلطة أو الجيش ، ولم تكن لغته معترفاً بها فى التخاطب أو التعامل ، ولم يكن لمشاعره صدى فى قلوب هؤلاء المتعالين عليه بالظلم والباطل .

وكانت فى مصر مشكلة أخرى من كبريات المشاكل ، فالاضطهاد الدينى بلغ أشده ، وإكراه الناس على اتباع مذهب « الحاكم » بلغ غايته ؛ فقد حاولت كنيسة الإسكندرية رفض « تفسير بيزنطة » لطبيعة المسيح وحقيقته .

وحين قاوم المصريون هذا الإجراء المتسم بالجبروت والظلم تعرضوا لحملة واسعة من الاضطهاد والتشريد والقتل .

وقد قابل المصريون الاضطهاد الاقتصادى والدينى بالمقاومة الإيجابية أحياناً ، ولكن الغالبية من الشعب المصرى لجأت إلى المقاومة السلبية ، وذلك بالفرار إلى المعابد والأديرة، وبترك مزارعهم وقراهم إلى الصحارى الجرداء المقفرة ، مما أدى إلى انتشار الفوضى واختلال موازين الأمن ، وتطلع الشعب المصرى للخلاص من الطغيان والظلم .

وفى ذلك يقول السير توماس أرنولد فى وصف الحال الذى كان عليه المسيحيون فى مصر :

كان بعضهم [1] يُعذب ثم يُلقى بهم فى اليم ، وتبع كثير منهم « بطريركهم » إلى المنفى لينجوا من أيدى مضطهديهم ، وأخفى عدد كبير منهم عقائدهم الحقيقية وتظاهروا بقبول قرارات مجمع خلقدونية ، بل قيل إن جستنيان أمر بقتل مائتى ألف قبطى فى مدينة الإسكندرية ، وإن اضطهادات خلفائه قد حملت الكثير على الفرار إلى الصحراء .

ترحيب المصريين بالفتح الإسلامى المنقذ

وقد جلب الفتح الإسلامى إلى هؤلاء القبط ، حياة تقوم على الحرية الدينية التى لم يتعموا بها قبل ذلك بقرن من الزمان ، وقد تركهم عمرو أحراراً على أن يدفعوا الجزية ، وكفل لهم الحرية فى إقامة شعائرهم الدينية ، وخلصهم بذلك من هذا التدخل المستمر الذى أنُّوا من عبئه الثقيل فى ظل الحكم الرومانى ، ولم يضع عمرو يده على شيء من ممتلكات الكنائس ، ولم يرتكب عملاً من أعمال السلب والنهب .

وفى هذا يقول البطريرك ميخائيل الأكبر بطريرك أنطاكية :

« وهذا هو السبب فى أن إله الانتقام الذى تفرد بالقوة والجبروت لما

---

(١) الدعوة إلى الإسلام : ص ١٢٣ .

رأى الروم نهبوا كنائسنا ، وسلبوا ديارنا فى غير رحمة أرسل أبناء إسماعيل « أى العرب » ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم .

وقد ذكر معظم المؤرخين أن المسلمين لم تكد أقدامهم تطأ أرض مصر حتى خرج الأقباط معهم ، وقد أصلحوا لهم الطرق ، وأقاموا الجسور ، وصار لهم القبط أعواناً على قتال الروم ! .

وأرى من الضرورى إثبات أهم الفقرات التى اشتملت عليها معاهدة الصلح بين الأقباط .. وبين عمرو بن العاص .. لقد تحددت من أول يوم حقوق كل من الطرفين .

وكان الأقباط فيها الطرف الرابح على كلا الجانبين .

لقد جاء فى نص هذه المعاهدة – ما يأتى – بعد الديباجة :

« هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان ..

على أنفسهم ..

وملتهم ..

وأموالهم ..

وكنائسهم وصليبهم ..

وبرهم وبحرهم ..

لايدخل عليهم شىء من ذلك ولا ينتقص ..

وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية .. إن اجتمعوا – أى اتفقوا – على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم – أى فاض النيل كعادته – خمسين ألف ألف درهم ..

ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب – أهل النوبة – فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم .

ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ، أو يخرج من سلطاننا .

وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً ، وكذا وكذا فرسا على أن لا يغزوا ، ولا يمنعوا من تجارة صادرة ، ولا واردة[1] .

إن المبادىء الهامة التى تضمنتها هذه المعاهدة تعد صفحة جديدة فى تاريخ القرون الوسطى ، وهى على نسق المعاهدات التى أبرمها المسلمون مع كثير من الشعوب التى حرروها من قبضة الرومان والفرس ..

ويجب أن نقرر هنا بعض الأسباب التى جعلت المصريين يستريحون لهذا العهد ، ويوقعونه راضين سعداء ..

- فقد استردت مصر بهذه المعاهدة حريتها الدينية كاملة ..

- وخف حمل الضرائب التى كان يدفعها المصريون الذين أرهقوا بالضرائب الباهظة ..

- وكان الحد الأعلى لضريبة الجزية خمسين مليوناً من الدراهم ، أى أن متوسط ما كان يدفعه الفرد الواحد للحكومة الإسلامية هو خمسة دراهم فقط .. فى كل عام .. أى ما يعادل خمسة سنتات فى هذا العهد .

فقد كان عدد المصريين أيام الفتح يتراوح بين ثمانية ملايين واثنى عشر مليوناً .

- كما يلاحظ أن هذه الضريبة كانت تنقص تبعاً لهبوط الفيضان ، ولكنها لا تزيد عن النسبة المقررة خمسة سنتات أو خمسة دراهم فى أسوأ الحالات ، كما أنها كانت تؤدى على ثلاثة أقساط ..

- وفى نظير ذلك تعهد المسلمون بحماية مصر من أى غزو وتوفير الأمن والطمأنينة لكل مواطن ، وتحقيق العدل والمساواة بين الجميع ..

- كما تركوا المقوقس ـ الحاكم العام المصرى ـ يباشر سلطاته دون تدخل ، بل كان المسلمون يلجأون إلى مشورته فى التعرف على أحسن الوسائل المؤدية إلى راحة المسلمين وسعادتهم .

---

(١) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ ١ ص ٢٤ - ٢٥ .

حقيقة الجزية

سؤال من المستر بتلر والسيدة ليليان :

– أليس فى هذه الجزية نوع من القهر والإذلال لمن تفرض عليهم هذه الجزية ؟

– شكراً للسيدة ليليان والمستر بتلر على هذا السؤال ..

إن الأصل اللغوى لكلمة « جزية » مأخوذ من كلمة جزى .. جزاء .. والجزاء هو الثمن الذى تدفعه أو تأخذه نظير عمل معين قمت به سواء أكان هذا العمل صالحاً أم سيئاً ، والمقصود هنا هو المعنى اللغوى الأول فأنت تدفع كذا .. جزاء عمل صالح ونافع يقدم لك ، وهو الدفاع عنك وتوفير الأمن والطمأنينة لمن يحيط بك ، ولكن أعداء الإسلام يشوهون هذه الحقيقة ويطمسون ما فيها من المثل الرفيعة ، إلا أن رجلاً منصفاً هو السير توماس أرنولد قد تصدى لهذه الحملات المغرضة ، وكشف الغموض والشك حول ما يثار عن هذه « الجزية » أو هذه « الضريبة » .

يقول السير توماس أرنولد (١) :

« لم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين – كما يريدنا بعض الباحثين على الظن – لوناً من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام ، وإنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة (وهم غير المسلمين) من رعايا الدولة الذين كانت تحول دياناتهم بينهم وبين الخدمة العسكرية فى مقابل الحماية التى كفلتها لهم سيوف المسلمين .

ولما قدم أهل الحيرة (من المسيحيين) المال المتفق عليه ذكروا صراحة أنهم دفعوا هذه الجزية على شريطة أن يمنعونا (أى يحموننا نحن المسيحيين) من المسلمين وغير المسلمين .

---

(١) الدعوة إلى الإسلام : توماس أرنولد .

والدليل على أن الجزية إنما كانت تدفع لهذا السبب – وهو حماية المسيحيين – أنه حين جمع إمبراطور الروم جيشاً كبيراً لصد قوات المسلمين ، ورأى المسلمون أنه لابد من الانسحاب وإخلاء المدن التي سيطروا عليها أمرهم القائد العام برد الأموال التي أخذوها من أهل البلاد المسيحيين ، وكان مما قاله لأهل هذه المدن « إنما رددناها لأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم (أى نحميكم) وإنا لا نقدر على ذلك ..

فقال لهم السكان المسيحيون :

ردكم الله علينا ونصركم عليهم (أى على الروم المسيحيين مثلهم) فلو كانوا هم مكانكم ، لم يردوا علينا شيئاً ، وأخذوا كل شيء بقى لنا ..!

ومن الواضح أن أية جماعة مسيحية كانت تعفى من أداء هذه الضريبة إذا ما دخلت فى خدمة الجيش الإسلامى . وكان الحال على هذا النحو مع قبيلة (الجراجمة) وهى قبيلة مسيحية كانت تقيم بجوار أنطاكية فقد سالمت هذه القبيلة المسلمين ، وتعهدت أن تكون عوناً لهم ، وأن تقاتل معهم شريطة ألا تؤخذ منهم الجزية ، وأن تعطى نصيبها من الغنائم ، ولما اندفعت الفتوح الإسلامية إلى شمال فارس سنة ٣٢هـ أبرم مثل هذا الحلف مع إحدى القبائل التى تقيم على حدود هذه البلاد ، وأعفيت من أداء الخدمة العسكرية .

حتى فى أيام الأتراك .. فى أيام الحكم التركى الذى كثيراً ما يوصف بالفظاظة والقسوة نجد هذه الروح الإسلامية مطبقة على رعايا الدولة .

مثال ذلك ما عومل به أهل ميغاريا ، وهم جماعة من مسيحيى ألبانيا الذين أعفوا من هذه الضريبة شريطة أن يقدموا جماعة من المسلحين لحراسة الدروب الجليلة التى كانت تؤدى إلى خليج « كورنتة » كما أن المسيحيين الذين استخدموا طلائع لمقدمة الجيش التركى أعفوا من أداء الخراج .. ومنحوا هبات من الأرض معفاة من جميع الضرائب ، وقد أعفى أيضاً من

هذه الضريبة أهالي رومانيا الجنوبية ، وكانوا يؤلفون عنصراً هاماً من عناصر القوة في الجيش التركي .

ومن جهة أخرى عندما أعفى الفلاحون المصريون المسلمون من الخدمة العسكرية فرضت عليهم الجزية كما فرضت على غيرهم من المسيحيين .

إن الجزية لم تكن تفرض إلا على القادرين على حمل السلاح فقط ، وقد أعفى منها النساء والرهبان والأطفال وكبار السن .. فهي أي الجزية ضريبة دفاعية .. وقد كنا في مصر ندفع هذه الضريبة نظير الإعفاء من الخدمة العسكرية قبل أربعين سنة .

هذه هي قصة الجزية ، كما يرويها مؤرخ إنجليزي منصف .. إنها ضريبة دفاع لا أقل ولا أكثر .. جزء بسيط من المال تدفعه لإنسان يموت من أجلك .

إن الجزية لم تكن أبداً سبباً دافعاً إلى الإسلام .. وما قيمة دراهم معدودة يدفعها الإنسان ثمناً لحمايته ، وتوفير الأمن والسلامة لماله وحياته ؟

إن القول بأن هذه الجزية ألجأت الكثير للدخول في الإسلام ينقضه الإسلام نفسه ، وتنقضه شرائع هذا الدين وأحكامه .. ذلك لأن الرجل إذا أسلم يدفع أضعاف هذه الجزية زكاة مفروضة في كل أنواع ثروته وماله ..

فهل يستقيم في نظر أي عاقل أن يغير رجل دينه لقاء خمسة دراهم بينما يعلم أنه بدخوله الإسلام يدفع كل عام ربع عشر أو نصف عشر ثروته وماله ؟!!

إن المواطن هنا في استراليا وفي أوربا وأميركا يدفع أكثر من ثلث راتبه شهرياً لشركات التأمين على الحياة والتأمين على السيارة والتأمين على البيت .

بل إننا نسمع كثيراً عن أناس يستأجرون حرساً خصوصيين لحمايتهم من اللصوص وقطاع الطرق ، ويدفعون لهم أجوراً مرتفعة في كل شهر .. يفعلون ذلك باختيارهم ورغبتهم .. بعد أن عجزت الدولة عن حمايتهم .

فإذا كان ذلك جائزاً ومشروعاً في أيامنا هذه ، أفيلام الإسلام بعد ذلك على سبقه وكرم أخلاقه وشهامته ؟!!

أصل المسلمين فى مصر

مستر تشارلى ومستر جيمس

– شكراً على هذه الإجابة .. والآن نعود إلى الأسئلة المقدمة ..

– نقصد أصل المسلمين فى مصر .. وهل هم مصريون فى الأصل ..

– أم غزاة قدموا إليها من خارج القطر ؟

– قبل الإجابة على هذا السؤال . لابد أن نعود إلى الوراء إلى الأيام الأولى من الفتح الإسلامى لمصر ...

بعد هزيمة الروم .. وخروجهم مطرودين .. وتخليص الشعب المصرى من طغيانهم الذى دام عدة قرون استرد الأقباط حرياتهم المفقودة . واسترجعوا كنائسهم المنهوبة ، وشعروا بالأمان الذى افتقدوه مدة طويلة ..

وهنا .. ظهر الفارق جليًا بين حكمين .. حكم الرومان لإخوانهم فى الدين .. وحكم المسلمين للمسيحيين ..

كان أول ما أنجزه القائد عمرو : إصدار بيان خاص يطالب بعودة البطريرك الذى هرب إلى الصحراء فراراً من الظلم ، وقد جاء فى هذا البيان الذى أصدره عمرو ما يأتى بالنص :

« (.. أينما كان بطريرك الأقباط بنيامين .. نعده بالحماية ، والأمان وعهد الله .. فليأت البطريرك ها هنا فى أمان واطمئنان ليلى أمر ديانته ويرعى أهل ملته) »[1] .

لقد تغير – فى مصر – كل شىء ، وابتسمت الحياة بالأمل والعدل .. لم تعد هناك تفرقة من أى نوع .. القانون يطبق على الحاكم والمحكوم دون محاباة ... ابن الأمير لا يتميز بشىء عن الخادم والأجير ..

---

(١) موسوعة تاريخ مصر – أحمد حسين – ص : ٣٩٦

* لقد استدعى الخليفة عمر بن الخطاب .. حاكم مصر وابنه للاقتصاص منهما لمصرى اعتدى عليه ابن هذا الحاكم .. وقد طلب الخليفة عمر من المصرى أن يضرب الحاكم نفسه لاحتمال أن يكون ولده قد تجرأ على فعلته هذه معتمداً على سلطان أبيه .

* وقد شكت إليه امرأة مسيحية من سكان مصر أن عمرو بن العاص - أى الحاكم - أدخل دارها فى المسجد كرهاً عنها .. فيرسل عمر إلى الحاكم يسأله عن الحقيقة فيكتب إليه عمرو :

إن المسلمين كثروا .. وأصبح المسجد يضيق بهم .. ولما كانت دار هذه المرأة بجوار المسجد .. فقد عرضت عليها ثمن هذه الدار ... وضاعفت الثمن .. حتى ترضى ، ولكنها لم توافق .. فاضطررت إلى هدم الدار وإدخالها فى المسجد .. واحتفظت لها بقيمة الدار لتأخذها متى شاءت .

فماذا كان جواب الخليفة عمر ... ؟

لقد أمر الحاكم أن يهدم المسجد .. ويعيد إلى المرأة المسيحية دارها كما كانت .!

لقد ذاق المصريون - ولأول مرة - طعم العدالة .. ، وشعروا - ولأول مرة - بالأمان والحرية ، - ورأوا - ولأول مرة - الأمير أو الحاكم شخصاً عاديًا يخطئ فيحاسب ، .. فإذا جار أو ظلم حوكم .. لقد انبهر الناس بهذه العقيدة الجديدة .. فاعتنقوا الإسلام جميعاً ماعدا قلة بقيت على ديانتها القديمة . لم يكن هناك إكراه لأحد .. لقد أسلم الناس جميعاً بمحض الاختيار ... وما كاد ينتهى القرن الأول حتى دخل أكثر الناس أفواجاً فى دين الله ..

بل إن حاكماً مسلماً حاول إيقاف هذا المد الإسلامى حتى لا تفلس خزينة الدولة التى كانت تعتمد على الجزية والخراج .. حاول هذا الحاكم المسلم منع الناس من اعتناق الإسلام خوفاً من الإفلاس .. فكتب إليه الخليفة وكان - عمر بن عبد العزيز - كتب إليه قائلا :

إنما بعث الله محمداً هادياً .. ولم يبعثه جابياً ...

المسلمون والمسيحيون فى مصر كلهم أقباط

إن مسلمى مصر مصريون أقحاح .. من أحفاد .. تحتمس .. وأخناتون .. ونفرتيتى التى يضرب بها المثل فى الفتنة والجمال .. ! أجدادهم .. أجداد مسلمى مصر .. هم الذين بنوا الأهرام .. وسكنوا « طيبة » و « منف » .. و « قفط » التى اشتقت منها كلمة « قبط » و « أقباط » .. وحرف اسمها لتعرف فى اللغة الإنجليزية باسم « Egypt » « إيجبت » .. كلنا أقباط .. مسلمون ومسيحيون .. الأصول واحدة .. لكل المصريين وإن اختلفوا فى العقيدة والدين .

منذ عامين .. وقبل أن أحضر إلى استراليا .. سافرت إلى مدينة مصرية شهيرة اسمها « طنطا » للاشتراك فى ندوة عن المسيحية والإسلام وكان المتحدثان الرئيسيان فى هذه الندوة هما : الشيخ الدكتور عبد الجليل شلبى الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ومطران الغربية الأنبا يؤانس ..

لقد تكلم الشيخ والمطران بإفاضة .. وعلت الهتافات مجلجلةً باسم الوحدة الوطنية ..

كنت أجلس فى هذا الوقت بين مجموعة من الرهبان والقسس .. الأب « متى » والأب « ميخائيل » والأب « تادرس » .

وحين جاء دورى فى الكلام .. قلت محتجاً :

أنا أرفض الهتاف باسم (الوحدة الوطنية) ... إن « الوحدة » تعنى الاتفاق أو الامتزاج بين عنصرين مختلفين أصلاً ... ونشأة ، وقد تم خلطهما بطريقة كيمائية مصطنعة ... !

وفى عالمنا المعاصر تعنى هذه الوحدة الاتحاد بين شعبين تفصل بينهما مسافات نفسية وعرقية .. ولكنهما لمصلحة خاصة قد اتحدا حرصاً على هذه المصلحة .

أما بالنسبة لمسلمى مصر ، ومسيحى مصر فالأمر عكس ذلك كله ..

كيف توحد بين شقيقين هما ابنا أب واحد .. وأم واحدة ؟ إن هذا تحصيل حاصل كما يقول الفلاسفة .. ثم قلت موضحاً ..

إن أى واحد منا لا يحفظ من أسماء آبائه وأجداده أكثر من خمسة : أبوه .. جده .. وجد أبيه .. ثم والد هذا الجد .. ثم اسم العائلة الذى ينسب عادةً إلى اسم الجد الأكبر لهذه العائلة ...

ثم قلت : هل أحد من الحاضرين يعرف من أسماء أجداده أكثر من ذلك .. ؟

– لا أحد يعرف ...

– ثم التفت إلى القساوسة الذين يجلسون بجوارى مداعباً لهم :

– أليس من الجائز يا أب « متى » ويا أب « ميخائيل » ويا أب « تادرس » ... أن يكون الجد السادس أو السابع هو جدى وجدك ؟

إننا جميعاً إخوة .. وفروع لشجرة واحدة .. وإذا كان ولا بد من الهتاف .. فليكن لهذه الأخوة .. وللأم .. أو « مصر » .. تلك الشجرة المباركة التى تؤتى أكلها .. إخاءً ومحبة ..

لقد زارنى – فى مكتبى – مستشار ثقافى لإحدى الدول ... وفى معرض الحديث عن الحرية الدينيـة للأقباط فى مصر قلت له :

– أى أقباط تعنى ... ؟

– قال : الأقباط ... !

– قلت له : الأقباط قسمان ... أغلبية مسلمة ... وأقلية مسيحية ... !

– ماذا تقول .. ؟

– أقول الحقيقة ..

ثم قلت له :

فى سفارتكم موظفون من كلتا الطائفتين .. حللوا فصيلة الدم .. طبقوا كل وسائل العلم .. لن تجدوا فارقاً فى النهاية بين مسيحى ومسلم .. أو بين مصرى .. ومصرى ...

صوت مسيحى من مصر ..

لقد كتب أحد الإخوة المسيحيين المصريين رسالة إلى مجلة إسلامية مصرية يؤكد فيها هذا « الأصل » .. أصل المسلمين والمسيحيين فى مصر ..

يقول الدكتور فيليب رفله[1] ..

إنه مما لا يعرفه الكثيرون فى خصوص وحدة الأصل للمسلمين والأقباط فى مصر أنه أجريت أبحاث على دماء كل منهما فى القرى والمدن وفى الصعيد وفى الوجه البحرى .. فوجد التماثل والتشابه الكبير بين فصائل الدم فى كل من الأقباط والمسلمين المصريين .

وهذا التوافق الكبير بين فصائل « فئات » الدم بين المصريين ... مسلمين وأقباطاً لم يتأيد بمثله بين العرب فى بلاد أخرى .. فقد وجد الباحث . فى لبنان اختلافاً فى فصائل (فئات) الدم بين العرب المسلمين والعرب المسيحيين الذين يعيشون فى نفس البيئة ، ويتكلمون لغة واحدة ، ولهم نفس العادات والتقاليد .

وهذا التشابه الكبير الذى يدل على وحدة الأصل يدعمه التاريخ وأحداثه المعروفة من أن عمرو بن العاص دخل مصر غازياً بأربعة آلاف ، وجاءه المدد وفيه الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود بأربعة آلاف أخرى .. ثم إن دخول العرب مصر لم يكن بالملايين .. بل بالآلاف .. أما الذى دخل فى الإسلام بالملايين فهم الأقباط .. أى أن معظم المسلمين فى مصر أصلهم أقباط . !

وقد أرسل البطريرك « بنيامين » إلى الأقباط – وكان مختبئاً من اضطهاد البيزنطيين – بمساعدة العرب حتى قيل إن البطريرك بنيامين يعتبر البطل الثانى للفتح العربى لمصر بعد عمرو بن العاص ؛ لمساعدة الأقباط الجدية فى فتح مصر .. ثم كان تسامح العرب .. وكان المسلمون يعيّدون الأعياد مع الأقباط لقرب عهدهم بالمسيحية ..

---

(١) نقلا عن مجلة « الاعتصام » الإسلامية القاهرية .

وهكذا عاش الأقباط وإخوانهم المسلمون فى مودة وتعاون .. قبور أجدادهم متجاورة ... ومساكن الأحياء – أبناء وأحفاداً – متجاورة .. أصل واحد ، وتاريخ واحد ووطن واحد ، وتقاليد لا تزال كما كانت قبل الإسلام والمسيحية ..

وقد ساعد الأقباط إخوانهم المسلمين فى حروبهم ضد الصليبيين . وهذا حق وتصرف سليم .. وقد منع الصليبيون الأقباط من زيارة بيت المقدس لهذا السبب ..

إن الأقباط لا شأن لهم بالسياسة ، ولا الدولة .. بمعنى أن الدين المسيحى لا يتدخل فى شئون الدولة مطلقاً .. فما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ..

كذلك لا شأن لنا نحن الأقباط بسياسة الدولة ، بمعنى ألا يتدخل الأقباط من الناحية الدينية فى سياسة الدولة ، فلا يتدخل الدين المسيحى فى سياسة الدولة فما فما لقيصر لقيصر وما لله لله .

ولم يكن هناك أية ذرة من سلامة الفكر أو الوطنية ، أن يتظاهر هؤلاء المأفونون فى خارج مصر .. فلا استعداء لغير المصرى على المصرى .. فالشأن كل الشأن لنا بعضنا مع بعض هنا فى مصر ... فالمصرى المسلم أحنى على القبطى من أى مخلوق على سطح الأرض .. لأنهم أقرب الخلق للأقباط .. ولذا كان من الخطأ الكبير أن يتظاهر هؤلاء الشبان فى الولايات المتحدة ؛ فهذه إساءة لنا جميعاً ، وأى قبطى يقبل هذا خائن لوطنه .. إن المصريين – مسلمين وأقباطاً – يدبرون أمورهم بأنفسهم .. فالوطن عزيز ؛ فقد ألفته النفس حتى كأنه لها جسد .. المصريون أيًا كانوا أعزاء .

إن الدين المسيحى بعيدعن أمور الدنيا والدولة .. فلا يتخذ الدين وسيلة لتحقيق أغراض دنيوية .. فقد طلب أخ من السيد المسيح أن يجعل أخاه يقاسمه الميراث فقال له المسيح عليه السلام « من جعلنى عليكما قاضياً ؟ » والمسيحية تجعل الرحمة والتسامح فوق العقوبة والقسوة .. « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر » .

صوت مسيحى من مصر ..

لقد كتب أحد الإخوة المسيحيين المصريين رسالة إلى مجلة إسلامية مصرية يؤكد فيها هذا « الأصل » .. أصل المسلمين والمسيحيين فى مصر ..

يقول الدكتور فيليب رفله[1] ..

إنه مما لا يعرفه الكثيرون فى خصوص وحدة الأصل للمسلمين والأقباط فى مصر أنه أجريت أبحاث على دماء كل منهما فى القرى والمدن وفى الصعيد وفى الوجه البحرى .. فوجد التماثل والتشابه الكبير بين فصائل الدم فى كل من الأقباط والمسلمين المصريين .

وهذا التوافق الكبير بين فصائل « فئات » الدم بين المصريين ... مسلمين وأقباطاً لم يتأيد بمثله بين العرب فى بلاد أخرى .. فقد وجد الباحث . فى لبنان اختلافاً فى فصائل (فئات) الدم بين العرب المسلمين والعرب المسيحيين الذين يعيشون فى نفس البيئة ، ويتكلمون لغة واحدة ، ولهم نفس العادات والتقاليد .

وهذا التشابه الكبير الذى يدل على وحدة الأصل يدعمه التاريخ وأحداثه المعروفة من أن عمرو بن العاص دخل مصر غازياً بأربعة آلاف ، وجاءه المدد وفيه الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود بأربعة آلاف أخرى .. ثم إن دخول العرب مصر لم يكن بالملايين .. بل بالآلاف .. أما الذى دخل فى الإسلام بالملايين فهم الأقباط .. أى أن معظم المسلمين فى مصر أصلهم أقباط . !

وقد أرسل البطريرك « بنيامين » إلى الأقباط - وكان مختبئاً من اضطهاد البيزنطيين - بمساعدة العرب حتى قيل إن البطريرك بنيامين يعتبر البطل الثانى للفتح العربى لمصر بعد عمرو بن العاص ؛ لمساعدة الأقباط الجدية فى فتح مصر .. ثم كان تسامح العرب .. وكان المسلمون يعيّدون الأعياد مع الأقباط لقرب عهدهم بالمسيحية ..

---

(١) نقلا عن مجلة « الاعتصام » الإسلامية القاهرية .

ورفض السيد المسيح أن يهلك قرية رفضت دخوله إليها .. ومن تعاليم المسيحية إطاعة الرؤساء . والدعاء لله أن يوفقهم فى أعمالهم .. وذلك فى صلواتهم .. ولا تقبل العمل ضد الرؤساء .. ولذا كان كل ما قرأته فى إحدى المجلات الإسلامية من أن هناك تفكيراً أوبيانات من الأقباط تبغى الصلاة فى بدء المحاضرات ، أو إنشاء جامعة قبطية ، أو غير ذلك ... إنما يتنافى مع تعاليم الدين المسيحى ... فلا يعقل أن يفكر أحد فى إخراج أحد من وطنه .. فنحن العرب لم نستطع أن نخرج ٣ ملايين يهودى من فلسطين ، ونحن المصريين سنعيش أبد الدهر متعاونين إن كنا من العاقلين .

ولا يهمنا نحن الأقباط أن يكون لنا وزير أو أكثر .. فهذا لا يفيدنا فى شىء .. فالوزير موظف بالدولة يأتمر بأمر رئيس الدولة ، ويعمل لمصلحة الوطن جميعه بكل فئاته ..

إن هذا صوت مصر الحقيقى كما عبر عنه الدكتور فليب رفلة :

صوت المسلم المصرى . والمسيحى المصرى .. لا تلك الأصوات التى فتلت حبالها بعقدة الكراهية . ودرب أصحابها على الحقد والتآمر فى أوكار الخيانة .

فى كتاب « شخصية مصر »[1] للدكتورة نعمات أحمد فؤاد :

« ... إن المتثقفين من المسلمين والأقباط يعلمون بالدراسة والوعى التاريخى أن مصر اعتنقت المسيحية ثم الإسلام بعد ذلك .

وكما نشرت مصر المسيحية وأضافت إليها ما لم يفعل أحد .... نشرت مصر الإسلام ومكنت له كما لم يفعل أحد ..

والقائلون من الأقباط بأن المسلمين المصريين دخلاء ظناً منهم بسذاجة أن هذا يتيح لهم أن يتفردوا بمجد القدماء أو بشرف الانتساب إلى مصر .. لهؤلاء أقول :

---

(١) صفحة ٢٦٥ وما بعدها – بتصرف .

هل يشرفهم أن يكون الدخلاء - كما يقولون - يشكلون أغلبية والأصلاء هم الأقلية ؟

أما حين يكون المسلمون مصريين مثلهم فإن كل فضل للأقلية فهو كسب للجميع باعتبارنا كلاً واحداً يكمل بعضه بعضاً . أمنا مصر ، وأبونا النيل ، وبينهما يتفاوت الإخوة وقد يختلفون ولكن عندهما يلتقون وإليهما ينتسبون .. وكيف يجوز فى الفهم أن يزيح الفاتحون أهل البلاد ، لا سيما إذا كان أهل البلاد أقدم تاريخاً وحضارة ... ؟

إن جيش الفتح الإسلامى فى قول كان أربعة آلاف . وفى قول ثمانية آلاف . وفى قول ثالث بعد الإمدادات اثنى عشر ألفاً .. ويمتد آخرون بالإمدادات إلى ثلاثين ألفاً ...

وأهل البلاد - أهل مصر - فى قول ، ثمانية ملايين ، وفى قول عشرة ملايين وفى قول اثنا عشر مليونا ...

فلو أخذنا بأكثر الأعداد بالنسبة للفاتحين . وبأقل العداد بالنسبة للأصليين .. هل من المعقول .. أو حتى من اللامعقول المخبول أن ثلاثين ألفاً يضاف إليهم من لحق من قبائلهم ولو كانوا أضعافاً أن يمسحوا بلداً وأى بلد .. ؟بلداً كمصر ويصيروا هم أصحابه وأغلبيته ؟!!

أيهما أكرم لإخوة الوطن الأقباط : أن يكونوا دخلاء أم أصلاء ؟

وإذا اعتسفنا المنطق نفسه وقلنا إن المسيحيين المصريين « فلسطينيون » باعتبار موطن المسيحية الأول « بيت لحم » .. ؟!

أين مصر إذن بين المسيحيين والمسلمين نتيجة للمنطق العجيب .. ؟

يجب أن يعرف هذا الكبار قبل الصغار ، حتى لا تكون عقد ولا استعلاء ولا تفاضل ولا تناحر يتسلل منه إلينا مستعمر يفرق ليسود ، أو جاهل بالتاريخ والدين يحسب التعصب تديناً ، فيضر بالدرجة الأولى من يتعصب لهم بما يفتح عليهم من ردود فعل أمثاله من الجهلاء فى الطرف الآخر ...

إن الوضع الاقتصادى للأقلية المسيحية .. أفضل من الوضع الاقتصادى للأغلبية المسلمة ألف مرة .

فى مجال التجارة هم .. الأكثر ..

وفى مجال الطب والصيدلة هم الأكثر ..

وفى مجال التعليم يشاركون المسلم فى كل مدرسة وجامعة فوق ما يتوفر لهم من وسائل التعليم فى مدارسهم الخاصة .

مؤلف الكتاب الأسود يناقض نفسه !!

إن جامعة الأزهر التى يندد بها كاتب الأكاذيب .. جامعة إسلامية . جامعة تفرض على طلابها وطالباتها دراسة الدين الإسلامى وأصوله .. فهل يريد الكاتب أن نفرض هذا على المسيحيين طالبات أو طلبة .. ؟

إن هذا الرجل يناقض نفسه .. ويكذبه الواقع فى كل كلمة .. فمرة يقول .. إن الحكومة المصرية تفرض تعاليم الإسلام على الطلبة المسيحيين فى مدارس الحكومة .. وهذا كما يقول : ضد حقوق الإنسان واحترام عقائده . ثم هو يطالب بأن يدخل الطلبة المسيحيون جامعة الأزهر التى يعلم جيداً أنها جامعة إسلامية ، وتفرض على طلابها وطالباتها دراسة الدين الإسلامى وحفظ القرآن كله..!!

فهل هناك أغرب من هذا التناقض والتخبط .. ؟

وإذا كان هذا كما يقول « محامياً » .. فهل يمكن أن يكسب أية قضية ؟ أو يترافع أمام أية محكمة ؟

(**ضحك**) ..

ومن قال إن مصر : تشترط فيمن يسافر إلى الخارج أن يؤدى امتحاناً فى حفظ القرآن ؟ إن هذا لا يحدث إلا فى الأزهر فقط .. لأن الأزهرى الذى يسافر إلى الخارج يسافر لهذا الغرض .. غرض نشر القرآن وشرح تعاليمه للمسلمين فقط ..

لقد قابلت فى المملكة العربيـة السعوية مسيحيين يعملون أطباء ... ومحاسبين وتجاراً .. وعمالا ..

أطباء ومحاسبون . وتجار وعمال من مسيحيى مصر . فهل أدى هؤلاء الامتحان فى حفظ القرآن وأصول الفقه .. ؟

إن تعليم الدين الإسلامى . والدين المسيحى يتم على قدم المساواة فى كل مدرسة .. وحرية العمل فى الخارج مباحة للجميع بدون تفرقة ..

أما جامعة الأزهر .. فإن لها وضعاً خاصاً يشبه وضع الفاتيكان وينفق عليها من ريـع الأوقاف .

فـهل يخطر ببال أحدكم يوماً أن يصدر البابا جون بول الثانى قراراً باختيارى عضواً فى مجلس الكرادلة ....؟!

(**ضحك**) .

– الآنسة فيفيان .. (ودائماً الآنسة فيفيان) .

– لقد أخذنا كثيراً من وقتك .. ساعتان قضيناهما جميعاً فى هذا الحوار الجميل الممتع .. لقد تجاوزت الساعة الخامسة ظهراً ...

وقد بقيت نقطة هامة لم تتكلم عنها بعد .. فهل ترى أن تكمل . أم ترجىء الحديث إلى وقت آخر .. ؟

– لا تزال عنـدى بقيـة من الوقت .. ساعة – بمشيئة الله – على الأقل .

(وهنا حدث همس وتقاربت الوجوه بعضها إلى بعض) .

الإحصاء العام للمسيحيين : بين الحقيقة والتزييف

– **مستر باتلر** :

– نريد أن نعرف عدد الأقباط المسيحيين بالضبط ..

– من حسن الحظ أننى حصلت أخيراً على بحث تاريخى نشر فى إحدى المجلات ... لقد كتب هذا البحث مؤرخ .. وحدد فى صفحاته أرقام

كل مرجع . والشيء الجميل في هذا البحث أنه يتصل بإحصائيات السكان في مصر .. من مطلع هذا القرن إلى هذا اليوم . كانت بداية هذا الإحصاء على أيدى موظفين بريطانيين – وهذا مهم – ثم قام بهذه الإحصائيات – بعد ذلك – موظفون مصريون مسيحيون .. وهذا هو الأهم .

فماذا جاء فى هذا البحث ؟ أو ماذا يقول هذا التقرير بالنص[1] .. ؟

« إن الحرص على الوحدة الوطنية واجب قومى ما فى ذلك شك ، لهذا فإن أى حوار حولها ينبغى أن يقوم على الحقائق لا على الأكاذيب والأوهام ، وإلا فلا جدوى من مناقشة تستهدف أصلاً ضرب الوحدة الوطنية باسم الوحدة الوطنية .

وموضوع القضية همس يدور ، وشائعات تبرز فى الظلام ، بأن الأقلية القبطية فى مصر قد بلغ تعدادها أربعة ملايين ، ثم إذا بالرقم يرتفع إلى ستة ملايين ثم إلى ثمانية ملايين ، ورتب مثيرو هذه الشائعات على هذا الادعاء حقوقاً ضمنوها منشورات لم تعد سراً تداولتها الأيدى فى مصر ، وبين الجاليات القبطية فى أمريكا واستراليا ، ووزعت على مراكز الإعلام الأجنبية .

والسؤال هو كيف وصل مثيرو هذه الشائعات إلى هذه الأرقام الإحصائية ، والمعروف البديهى أن تعداداً عاماً يحتاج إلى آلاف الأيدى للاشتراك فى إجرائه ؟ والرد العملى يكمن فى مناقشة هذا الادعاء فى هدوء وموضوعية . ومع ذلك فلأى مواطن أن يطعن فى هذه البيانات الرسمية أمام جهات الاختصاص كالمحكمة الدستورية أو مجلس الدولة ، مؤيداً دعواه بالأدلة القانونية . وبين طوائف الأقليات رجال قانون يحسنون هذا الإجراء إذا اطمأنوا لجدية القضية ، وإلا كانت هذه الادعاءات غوغائية يحاسب المصدرون لها فى حدود القانون .

---

(١) مجلة الدعوة الإسلامية القاهرية .

الطوائف المسيحية واليهودية بلغت ٨,٣٣ ٪ مع ملاحظة ارتفاع عدد الأقباط الكاثوليك من ٤,٦٢٠ نسمة فى التعداد الأول إلى ٢٤,٠١٥ والأقباط البروتستانت من ١٢,٥٠٧ إلى ٦٦,٠٨٠ نسمة .

حافظت النسبة المئوية للسكان على أساس الديانة فى جميع التعدادات التالية ، مع فارق الارتفاع التدريجى للأقباط الكاثوليك ٧٢,٧٦٤ ، والأقباط البروتستانت ٨٦,٩١٨ (تعداد ١٩٤٧) أى أن النسبة العامة للمسلمين إلى مجموع السكان ظلت مستقرة تقريباً وهى ٩١,٨١ ٪ فى عام ١٩٣٧ و ٩٢,٠٩ ٪ فى عام ١٩٤٧

فى تعداد ١٩٦٠ ارتفعت جملة عدد السكان إلى ٢٥,٩٨٤,١٠٦ منهم ٢٤,٠٦٨,٢٥٢ من المسلمين و ١,٩٠٥,١٨٢ من جميع الطوائف المسيحية .. أى أن نسبة الطوائف المسيحية كانت ٧,٣٣ ٪ منهم ٦,٤٩ ٪ من الأقباط الأثوذكس وتكررت النتيجة فى تعداد عام ١٩٧٦ فارتفعت جملة السكان إلى ٣٦,٦٥١,١٨٠ منهم ٢,٣١٥,٥٦٠ من غير المسلمين أى بنسبة ٦,٣٢ ٪ منهم ٥,٦٨ ٪ من الأقباط الأرثوذكس ، وهذا الانخفاض النسبى يعزى إلى ارتفاع فى عدد الأقباط الكاثوليك والبروتستانت وإلى هجرة أعداد من الشباب القبطى الأرثوذكس المتعلم إلى استراليا وكندا والولايات المتحدة ، فإذا اعتبرنا أن الأقباط الأرثوذكس يمثلون ٩٠ ٪ من مجموع المسيحيين فإن عدد الأقباط الأرثوذكس فى مصر فى الوقت الحاضر هو فى حدود المليونين فقط (٢,٠٨٤,٠٠٤) ، وغير ذلك أوهام فى رءوس أصحابها .

إن ثبوت هذه الأرقام التى جاءت نتيجة لنظام وضعت أسسه تحت إشراف إنجليزى ، وانتقل إلى إشراف مصرى قبطى أرثوذكسى لا يسمح لإثارة الشكوك حوله ولا يسمح لنقض أو رفض ، وإلا تحولت أية مناقشة إلى سفسطة بالإمعان فى المبالغة والاختلاف ، وتحويل المئات إلى آلاف والآلاف إلى ملايين .. إن تعداد سكان دولة كمصر يحتاج إلى أكثر من ٣٠ ألفاً من الموظفين المسلمين والأقباط للمشاركة فى إجرائه ، وهل يمكن أن أجرى

فى الظلام مؤامرة يشترك فيها ثلاثون ألفاً لا يعرف بعضهم بعضاً .

تؤكد صحة ودقة البيانات السابقة الإحصاءات التفصيلية على مستوى المحافظات التى تكاد تكون نسبتها مستقرة ثابتة ، ففى الفترة بين عام ١٨٩٧ ، ١٩٧٦ تراوحت نسبة الطوائف المسيحية فى المحافظات الآتية (على سبيل العينة) على النحو الآتى : أسيوط بلغت النسبة (وهى أعلى ما يكون على مستوى البلاد) بين ٢١,٠٧ ٪ و ١٩,٩ ٪ وفى القاهرة بين ١٥,٩ ٪ و١٠,١٣ ٪ وفى قنا بين ٨,٥ ٪ و ٧,٥ ٪ وفى الشرقية ٢,١ ٪ و ١,٣ ٪ وفى الدقهلية بين ٢,٠ ٪ و ١,١ ٪ فمن ثم كان متوسط النسبة المئوية للطوائف المسيحية مجتمعة على مستوى الجمهورية منذ عام ١٨٩٧ حتى اليوم هى ٧,٧٢ ٪ .

ومع أن هذه البيانات استخلصت من إحصاءات مباشرة فإن هناك ميزاناً لتيقن مدى صحتها ، وذلك بإجراء مقارنة لعدد المواليد والوفيات خلال عام من الأعوام على أساس الديانة وهى بيانات مثبتة فى شهادات الميلاد والوفيات وتخطر بها أولا بأول منظمة الصحة العالمية ومنظمة الأغذية والزراعة التابعتان لهيئة الأمم المتحدة .

نأخذ مثلا عفوياً قريباً وهو عام ١٩٧٤ ففيه بلغت جملة المواليد فى مصر ١,٢٨٧,٦١٤ منهم ١,٢٢٣,٣٠٠ من المسلمين و ٦٤,٣٦٤ من غيرهم (طوائف مسيحية ويهود) وقد بلغت جملة الوفيات فى نفس العام ٤٥٧,٦٢٠ منهم ٤٣٠,١٢٢ من المسلمين و ٢٧,٤٩٨ من غيرهم .. من هذا يتضح أن النسبة المئوية على أساس المواليد و الوفيات لغير المسلمين تدور فى جميع الحالات حول ٦,٢٢ ٪ وهو ما يؤكد صحة التعدادات المباشرة .

ليس الصوت الأعلى نبرة يمنح صاحبه حقوقاً ليست له ، وليست هذه النغمة التى نسمعها اليوم جديدة ، وليست هذه الحملة غريبة ، ولكنها تبرز كلما وجدت الوقود لها .. ولنرجع إلى الماضى غير البعيد ولنحتكم إلى أصوات لا يتهم أصحابها بالتواطؤ أو المحاباة .

الحكام البريطانيون لمصر يدينون تعصب بعض الأقباط

يوضح اللورد كرومر فى مؤلفه (مصر الحديثة) الروح المتعصبة لبعض الأقباط المتطرفين (مجلد ٢ فصل ٣٦ الطبعة الإنجليزية) بقوله :

إن مبادئ الحيدة الدقيقة التى طبقها الحكم البريطانى كانت غريبة عن طبيعة القبطى ، وعندما بدأ الاحتلال البريطانى أخذت تساور عقله آمال معينة ؛ فكان القبطى يقول لنفسه : إننى مسيحى والإنجليز مسيحيون ، فلو كان الأمر بيدى لكنتُ تعصبت للمسيحيين على حساب المسلمين ... وكان يقول لنفسه :

ولما كان للإنجليز السلطة فإنه من المؤكد أنهم سوف يحابون المسيحيين على حساب المسلمين .. هذا هو الخطأ المحزن الذى يلام هؤلاء الأقباط عليه .

ولما اكتشف القبطى أن هذا الأسلوب فى التفكير عقيم ، وأن سلوك الإنجليز مراجعة مبادئ لم يضعها القبطى فى اعتباره ويعجز عن فهمها .. تملكه إحساس بالفشل عمق ضغينته .. لقد كان يرى أن تطبيق العدالة بالنسبة للمسلمين يعنى الظلم له وكان يعتقد – ولو بطريقة غير شعورية – أن الظلم وعدم محاباة الأقباط ألفاظ مترادفة .. (انتهى . من تقرير « كرومر ») .

ثم دعنا نستمع إلى بريطانى آخر لا يتهم كذلك بالمحاباة وهو السير الدون جورست المعتمد البريطانى ، ودعنا نقلب تقريره المرفوع إلى حكومته بتاريخ ١٠ مايو ١٩١١ م والذى يلقى الضوء على محاولات بعض المتطرفين الأقباط إثارة الخواطر ، بدعوى أن الأقباط فى مصر لا يتمتعون بنفس الحقوق التى يتمع بها المواطنون المسلمون . قال ما ترجمته : « إن المسلمين يؤلفون ٩٢ ٪ من مجموع السكان ويمثل الأقباط أكثر قليلا من ٦ ٪ (٧٠٠ ألف) وأن هذه الأقلية موزعة توزيعاً غير متساوٍ فى أنحاء البلاد فهم يمثلون أقل من ٢ ٪ من السكان فى ٣٠ مركزاً بين ٤٠ مركزا بالوجه البحرى بينما ترتفع نسبتهم إلى ٢٠ ٪ فى ٩ مراكز فقط من ٣٧ فى الصعيد .

لهذا فإن فكرة معاملة قطاع من سكان البلاد كطائفة مستقلة فى نظرى يمثل سياسة خاطئة سوف تكون فى النهاية مخربة لمصالح الأقباط .. إن شكوى عدم تطبيق العدالة مثلا فى التعيين فى الوظائف الحكومية تنقضه الإحصاءات التى تبين أن الأقباط يشغلون نسبة من الوظائف العامة تزيد بكثير عن نسبة قوتهم العددية التى تسمح لهم بذلك . ويتبين من الجداول الآتية أن جملة العاملين بوزارات الحكومة بلغ ١٧,٥٦٩ منهم ٩,٥١٤ من المسلمين أى نسبة ٥٤,٦٩ ٪ و ٨,٠٨٢ من الأقباط أى بنسبة ٤٥,٣١ ٪ بينما فى بعض الوزارات ترتفع هذه النسبة أكثر بكثير .. فوزارة الداخلية وإداراتها تضم ٦,٢٢٤ موظفاً منهم ٢,٣٤٦ من المسلمين نسبة ٤٥,٦٩ ٪ و ٣,٨٧٨ من الأقباط أى بنسبة ٥٤,٣١ ٪ .. من هذا يتبين أن الأقباط يمثلون فى الجهاز الحكومى من حيث العدد والمرتبات نسبة لا تتكافأ مطلقاً مع نسبتهم العددية .. إننى لا أقر مطلقاً فى ضوء مصالح الأقباط أنفسهم أن أشجع أى نظام من شأنه أن يحدث انشقاقاً بين الطوائف المسلمة والقبطية ، لأنه ليس فى مصالح الطائفة القبطية (انتهى) .

إن هذه المقتطفات التى سجلها المندوب السامى البريطانى ووجهها إلى حكومته فى عام ١٩١١ والذى لانشك فى حسن نواياه للطائفة القبطية تمثل الواقع المعاصر . فالأقلية القبطية التى مازالت فى حدود ٦ ٪ من مجموع السكان تحصل على امتيازات تفوق نسبتها العددية ، وهذا ينصرف إلى نسبة الأقباط فى الوظائف العامة ، وفى جملة المرتبات التى يحصلون عليها من الخزانة العامة ، وينصرف إلى نسبة المقبولين فى الجامعات والمعاهد العليا ، وبالتالى تنعكس هذه النسبة على انخفاض عدد المجندين فى الجيش العامل بسبب استثناءات المؤهلات ، وتنصرف كذلك إلى الإجازات الرسمية التى يتمتع بها الموظف القبطى بالنسبة لأغلبية الجهاز الحكومى والقطاع العام ، وتنصرف كذلك إلى دور العبادة من كنائس وغيرها مما تسمح لهم الدولة بإقامته على غير أساس من الكثافة الطائفية ، وتنصرف إلى استثناء

الأوقاف القبطية من تطبيق قانون الإصلاح الزراعى حتى إن صوتاً فى مجلس الشعب ارتفع مطالباً بمساواة الأغلبية بالأقلية التى تتمتع بامتيازات لا تتناسب مع نسبتها العددية ، إذا قورنت مصر بأية دولة توجد بها مثل هذه الأقلية فى العالم !!

فما سر هذه الضجة حول الأقليات ؟ وما معنى هذا التوجس والقلق الذى يبديه غير المسلمين كلما ذكر الحكم الإسلامى ، وكلما دعا الداعون بضرورة العودة إلى نهج الإسلام وشرع الإسلام [1] .

الغرب يؤصل الحقد والكراهية بين المسلمين والمسيحيين

إن هذا التوتر لم ينبع من الداخل .. جاء من الغرب الذى شن على المنطقة حملات صليبية وحشية متكررة ، ولم يرفع يده عنها بعد .. ولا يزال الغرب يكيد للمنطقة متذرعاً إلى ذلك بشتى الذرائع وفى مقدمتها - بل أهمها - إثارة الأقليات .

إن السياسة التى اتبعها الغرب خلال ثمانية قرون هى استخدام مسألة الأقليات المسيحية فى الشرق ، لإثارة الفتن والقلاقل التى تخدم أغراضه ، وذلك بخلق جو من الريبة والعداء الدائم بين المسلمين والمسيحيين .

ويصف المؤرخ « ليدوفيك دى كونتش » هذه السياسة فيقول .:

كان الغرب يعمل جاهداً على تأصيل بذور الكراهية والحقد ضد المسلمين فى نفوس المسيحيين ، يتلقونها خلفاً عن سلف ، ويرضعها الطفل من شعور أمه كما يرضع اللبن من ثديها .. فتسرى فى كيانه مسرى الدم فى عروقه ، وتنشأ عقيدة تقضى على العلاقة بين المسلم والمسيحى إلى الأبد .

وفى سبيل هذه الغاية الشريرة حاول الغربيون أن يشوهوا تاريخ التسامح الإسلامى الذى لم تعرف الإنسانية له نظيراً .. متذرعين بحوادث جزئية قام بها بعض العوام والرعاع فى بعض البلاد وبعض الأزمان نتيجة لظروف تحدث فى كل الدنيا ..

---

(١) الأقليات فى المجتمع الإسلامى للدكتور / يوسف القرضاوى .

وفى هذا يقول « متز » :

« إن أكثر الفتن التى وقعت بين النصارى والمسلمين بمصر – يعنى فى القرون الأولى – نشأت عن تجبر المتطرفين الأقباط . ولا ننكر أن هناك حكاماً ظلموا أهل الذمة أو تشددوا عليهم .. ولكن هذا يعتبر شذوذاً من القاعدة العامة فى التسامح الإسلامى مع غير المسلمين .. »

وفى الغالب إن هذا النوع من الحكام يظلم المسلمين – قبل اليهود والنصارى – فإن الظالم لا يقف ظلمه عند مسلم أو غير مسلم ..

بل إن كثيراً من ظُلاَّم الحكام كان يرفق بأهل الذمة رعاية لذمتهم ، على حين كان يقسو على أهل ملته من المسلمين ويحيف عليهم .. بل إننا نجد أن عالماً جليلاً من علماء المسلمين هو الشيخ أحمد الدرديرى – شيخ الإسلام فى عصره – يذكر عن حكام هذا العصر أنهم كانوا يكرمون أهل الذمة من اليهود والنصارى أكثر من المسلمين ، حتى قال هذا الشيخ الجليل : « ياليت هؤلاء الحكام يضربون على المسلمين الجزية كالنصارى واليهود ويتركوننا بعد ذلك كما تركوهم ..! » .

اليهود والنصارى يتولون أعلى المناصب فى الدول الإسلامية

بل إن من أعظم بواعث الاستغراب كما يقول « جوتييه » فى كتابه « أخلاق المسلمين وعاداتهم » : أنه حدث مرتين فى القرن الثالث للهجرة أنه كان من النصارى وزراء حرب .. وكان على القواد – حماة الدين – أن يقبلوا أيدى الوزير وينفذوا أمره ..

بل هناك ما هو أكثر من هذا ..

ففى عهد الدولة الفاطمية وصل بعض اليهود والنصارى إلى أرقى المناصب المالية والإدارية فى الدولة ، وقد استغل هؤلاء نفوذهم فى الإساءة إلى الإسلام والمسلمين حتى إن امرأة مسلمة كتبت إلى الحاكم المسلم تشكو إليه وتقول :

« .. أستحلفك بالذى أعز اليهود بـ « منشا » – وهو اسم رجل يهودى – ، والذى أعز النصارى بـ « ابن نسطورس » – وهو اسم رجل مسيحى ، والذى أذل المسلمين بك – تقصد الحاكم – إلا قضيت أمرى – أى حاجتى – !!

وقد فاضت من هذه الحال – التى وصل إليها أمر المسلمين بسبب تعسف عمال الدولة من اليهود والنصارى – قلوب الناس بالمرارة والخيبة حتى وصف بعض شعرائهم ذلك فى قوله :

يهود هذا الزمان قد ملكوا ... غاية آمالهم وما مُلِكوا

العز فيهم والملك عندهم ... ومنهم المستشار والملك

يا أهل مصر إنى نصحت لكم ... تهوّدوا قد تهوّد الفلك ..!

ووصف شاعر آخر ما وصل إليه حال المسلمين على أيدى موظفى الحكومة من المسيحيين فقال [1] :

إذا حكم النصارى فى الفروج ... وغالوا بالبغال وبالسروج

وذلت دولة الإسلام طرا ... وصار الأمر فى أيدى العلوج

فقل للأعور الدجال هذا ... زمانك إن عزمت على الخروج

– السيد تيلر والسيدة نانسى :

متى حدث هذا ؟

فى القرن الرابع الهجرى منذ ألف عام تقريباً .. وكانت الدولة الإسلامية هى أقوى قوة فى العالم ، والمد الإسلامى يجتاح ممالك الدنيا شرقاً وغرباً ..

وقبل أن نختتم هذه الحلقة من الحوار .. أريد أن أسألكم هذا السؤال :

أليس كل شعب حراً فى اختيار النظام الذى يروقه ، والقانون الذى يطبقه ؟

---

(١) نقلاً عن كتاب « أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى » للدكتور قاسم عبده قاسم ص ٥١ – ٥٣ ، وكتاب « التعصب والتسامح » للشيخ محمد الغزالى .

ليس للأقلية أن تفرض إرادتها على الأغلبية

أليست الديمقراطية هي حكم الأغلبية ؟ والحكم بمقتضى ما تراه هذه الأغلبية ؟

فإذا حاولت « فئة » أو « أقلية » فرض إرادتها على هذه الأغلبية .. ألا يعتبر ذلك أسوأ مثال للطغيان والدكتاتورية ؟

وهل تقبل الحكومة الاسترالية أو الشعب الاسترالي أن يتقدم المائتا ألف مسلم الموجودون هنا في استراليا .. هل يقبل الشعب والحكومة من هؤلاء المسلمين المائتي ألف أن يفرضوا على الدولة نظاماً معيناً أو تشريعاً معيناً يتعارض مع فلسفة الحكم ونظامه في استراليا ؟

إن المسلم الاسترالي يخضع للقانون الذي يخالف في كثير من مواده عقيدة هذا المسلم وإيمانه وبالرغم من ذلك لا يخرج المسلمون في مظاهرات تتهم الحكومة الاسترالية والشعب الاسترالي بالهمجية والتعصب أو إهدار حقوق الإنسان التي نص عليها ميثاق الأمم المتحدة .

وقوانين الزواج والطلاق والميراث ... ؟

إن هذه القوانين تتعارض كثيراً مع قوانين الأحوال الشخصية بالنسبة للمسيحي أو المسلم .

فهل اعترض هؤلاء على تلك القوانين التي تتنافى مع أصول شريعتهم في الوطن الأم مثلاً ..؟

إن المشكلة في حقيقتها ليست مشكلة حقوق وواجبات ، فهؤلاء الذين يصرخون ويولولون صباح مساء .. يعلمون حق العلم أن حقوقهم مكفولة في الوطن الأم .. وأن القانون لا يفرق بين مسلم أو مسيحي في مصر ..

ولكن جوهر المشكلة والباعث الحقيقي لهذا السخط والثورة إنما هو الإسلام والدعوة إلى تطبيق شريعة الإسلام .

هل سمعتم برجل مسلم – يحمل الجنسية الاسترالية – يعترض على علم الدولة الذى يحمل صورة الصليب ..؟

هل اعترض مليونان من مسلمى بريطانيا لأن القانون البريطانى ينص على أن الملكة هى رئيسة الكنيسة وحامية حمى المسيحية ؟

إن المسيحيين هم أقرب الناس إلى قلوب المسلمين كما يقول القرآن :

﴿ .. ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾ .

أفتبقى بعد هذا البيان الإلهى الناصع فى قلب أحدكم شبهة أو شك ؟

وكيف تكون هذه الحياة إذا لم نعمرها بالإخاء والمودة والحب ؟

إن الحرية لا تتجزأ ..

وكرامة الإنسان .. أى إنسان .. لا تتجزأ ..

الحرية الإنسانية والكرامة الإنسانية حقان مكتسبان بالفطرة .. فطرة الله التى فطر الإنسان عليها واختاره خليفة عنه فى أرضه ..

لقد مرت جنازة رجل يهودى أمام النبى محمد ﷺ فقام لها احتراماً ، وحين تعجب الصحابة من موقف النبى أمام جنازة رجل ينتمى إلى أعدائه رد عليهم قائلاً :

« أليست نفساً ..؟ »

غير المسلمين يضطهدون المسلمين

ولكن المسلمين ليست لهم هذه الكرامة عند مخالفيهم فى العقيدة ..

إن القانون الدولى إلى عهود قريبة كان يعتبر هؤلاء المسلمين كائنات شاذة لا يطبق عليها مثل هذا القانون ، ولا تقرر لهم أية حقوق فى هذا القانون ، وكانت الإساءة إليهم ، والاعتداء عليهم حقاً مشروعاً فى هذا القانون ..

مثل من الحبشة

ولأكون واضحاً .. وليكون كلامى مؤكداً .. أضرب لكم مثلاً واحداً للتعاسة والمعاناة التى يتعرض لها المسلمون فى بلد إفريقى يرتبط بهؤلاء الشانئين والمبغضين برباط العقيدة وبرباط المذهب الذى تدين به هذه الطائفة .. هل سمعتم بالحبشة .. أو « أثيوبيا » التى كانت تحكم إلى عهد قريب بإمبراطور اختار لنفسه اسم هيلاسلاسى أو قوة الثالوث أو أسد يهوذا المنحدر من صلب الملك سليمان وبطن بلقيس !!

لقد سافر أستاذان جليلان من جامعة الأزهر لدراسة أحوال المسلمين فى شرق أفريقيا ، وبخاصة أحوال هؤلاء المسلمين فى أثيوبيا ..

فماذا كتب هذان الأستاذان ؟ أو ماذا رأيا فى الإمبراطورية المحكومة بأسد يهوذا حفيد بلقيس والملك سليمان ؟

بعد انتهائنا من زيارة الصومال رأينا أن نواصل الرحلة إلى الحبشة نظراً لأن الميعاد المحدد لدخولنا أوشك أن ينتهى فسافرنا يوم ٢٦ من يوليو سنة ١٩٥١م بالسيارة إلى « جيجيجا » وهى أول مدينة من مدن الحبشة فى جنوبها الشرقى وتعتبر عاصمة الصومال الأوجادينى .

وبعد أن نزلنا الفندق ومكثنا فيه ساعة ونصف الساعة أمرنا بمبارحة المدينة ولم يسمح لنا بالإقامة ، فاضطررنا للعودة إلى « هرجيسة » فى مساء اليوم الذى دخلنا فيه ، ثم برحنا هرجيسة إلى عدن ، ثم منها إلى أسمرة ، وبعد أن أقمنا عشرة أيام ، أخطرنا من السفارة المصرية بأديس أبابا بأن وزارة خارجية أثيوبيا سمحت لنا من جديد بدخول الحبشة ، فسافرنا بالطائرة إلى أديس أبابا يوم الخميس ١٦ من أغسطس عام ١٩٥١م وأقمنا بها اثنى عشر يوماً ، حاولنا خلالها أن نقوم بزيارة معاهد التعليم فى العاصمة والمدن الكبيرة ، وأن نتصل بالمسلمين ، فلم نستطع إلى ذلك سبيلاً لأسباب خارجة عن إرادتنا ..

ولم يمنعنا ذلك من الوقوف على كثير من شئون المسلمين فى الحبشة ،

وسنذكر بعض ما سيمكننا ذكره منها فى هذا التقرير ، متوخين الحقائق التى يهم أولى الأمر الاطلاع عليها .

ثم يمضى التقرير فيذكر هذه الحقيقة الغريبة التى لا يكاد يعرفها أحد ، وهى أن نسبة المسلمين فى الحبشة بصفة عامة لا تقل عن ٦٥٪ من مجموع السكان ، وأنها ترتفع فى بعض المناطق إلى ٨٥٪ وتهبط فى بعضها إلى ٢٥٪ وهى فى عمومها أغلبية أكيدة ، مع انقسام البقية من السكان إلى مسيحيين ويهود ووثنيين .. ويعتمد التقرير فى هذا على الإحصاء الإيطالى الدقيق ، الذى قام به الإيطاليون فى سنة ١٩٣٦م ، وإحصاءات القنصليات الأجنبية فى الحبشة .. وهى حقيقة غريبة كما قلت ، ويزيدها غرابة ما سنعرفه من إهمال العنصر الإسلامى إهمالاً تاماً فى الوظائف والتعليم والمعيشة وتجريده من سائر حقوق المواطنين ..!

ثم يذكر التقرير هذه الحقائق المفجعة العجيبة :

أولاً : أن الحكومة الحبشية بعد انتهاء الاستعمار الإيطالى ، قد اغتصبت من المسلمين ثلثى أملاكهم العقارية وسلمتها للمسيحيين من الرعايا ، مع بقاء الضريبة الفادحة على الرعايا المسلمين ، حرصاً على إفقارهم وانحلالهم .

ثانياً : أن الحكومة الحبشية تمنح إرساليات التبشير المسيحية كل العناية والرعاية ، فى الوقت الذى تحرم فيه على المسلم أن ينتقل من محلته إلى محلة أخرى لإرشاد المسلمين ووعظهم ، وتقضى على كل محاولة ترمى إلى ذلك ، وقد جاء فى تقرير لهذه الإرساليات أنه يمكن تنصير جميع المسلمين فى هذه المناطق خلال خمس سنوات نظراً لجهلهم وفقرهم ، وعدم وجود من يعلمهم دينهم أو يحثهم على التمسك بعقيدتهم .

ثالثاً : أن أكثر المسلمين فى الحبشة اهتماماً بنشر علوم الدين ، هم مسلمو مقاطعات « كفا ، جيما ، للو ، هرر » وأنه كان فى جيما وحدها أكثر من ستين مدرسة لتعليم أبناء المسلمين ، ولكن بعد أن أعلن ضمها

للإمبراطورية الحبشية واعتقل سلطانها الأمير عبد الله ابن السلطان محمود ابن داود المشهور باسم أبى جعفر وزج به فى غيابة السجن .. استولت الحكومة الحبشية على هذه المدارس ثم أغلقت أكثرها ، وغيرت مناهج ما بقى منها ، ولم تجعل للغة العربية . ولا للدين الإسلامى أثراً فيها .

رابعاً : أن السلطة الحبشية جاهدة فى سبيل نشر التعليم بين أبناء المسيحيين فى البلاد بقدر ما تسمح لها مواردها ، وأنها أنشأت لذلك حوالى مائتى مدرسة ابتدائية وثانوية للبنين والبنات ، ليس بين تلاميذها وتلميذاتها أكثر من ثلاثة فى المائة من مسلمى الحبشة ، الذين لم تجد الحكومة بدّاً من قبولهم لظروف خاصة ، وأنه على الرغم من زيادة عدد المسلمين عن المسيحيين لا تقوم الحكومة بالإنفاق على تعليمهم بأكثر من خمسة فى المائة من ميزانية التعليم ، هذا بالإضافة إلى أن برنامج المدارس الحكومية ليس للغة العربية ولا للدين الإسلامى نصيب منها ، حتى فى المناطق الإسلامية المحضة .

خامساً : أن المسلمين قد ألحوا على وزارة المعارف فى هذه المناطق بتقرير دراسة الدين الإسلامى ، واللغة العربية فى المدارس التى بها ، فعينت مدرسين فى بعض هذه المدارس باسم تعليم الدين الإسلامى ورفضت طلب تدريس اللغة العربية ، واختارت مدرسى الدين الإسلامى من بعض الجهلة الذين لا يدرون شيئاً من تعاليم الإسلام ولم تحدد لحصة الدين زمناً خاصاً كغيرها من حصص الأمهرية والإنجليزية وسائر العلوم التى تعلم فى المدرسة ، بل كلفت مدرس الدين الإسلامى أن يجمع التلاميذ فى الأوقات المخصصة لراحتهم ليعلمهم فيه المبادئ التى لا تخرج عن أوقات الصلاة المفروضة وعدد ركعاتها وأركانها وشروطها ، وما شاكل ذلك ، فكان ذلك المدرس لا يجد من أوقات راحة التلاميذ ما يسمح بتعليمهم ، ويمر العام كله دون أن يلقى عليهم درساً واحداً .

سادساً : أن الحكومة اختارت فى العام الماضى بعثات من المتخرجين

فى بعض المدارس ، وأوفدتها إلى المعاهد المختلفة فى الخارج ليعودوا فيتولوا المناصب الكبيرة فى الدولة ، وقد كان من بين المبعوثين اثنان من المسلمين بحكم تفوقهما البارز ، ولكن بعد أن تمت إجراءات سفرهما حيل بينهما وبين السفر لأسباب غير معروفة .

سابعاً : أنه كان للمسلمين ثمانى مدارس ، وكانت الدراسة فيها قائمة على أساس اللغة العربية والدين الإسلامى .. ومواردها تأتى من التبرعات والهبات بواسطة جمعيات لهذا الغرض ، وكانت تقوم بتعليم ثلاثة آلاف من أبناء المسلمين ، وقد ظلت تؤدى مهمتها رغم جميع المتاعب إلى سنة ١٩٤٩ .. ولكن الحكومة أرادت إخضاعها لبرامجها الخالية من اللغة العربية والدين ، فلما رفض القائمون عليها هذا الأمر سلكت الحكومة مع هذه الجمعيات مسلكاً اضطر أعضاؤها بسببه إلى التخلى عن مساعدة هذه المدارس ، والتنازل عن ثلاث مدارس منها ، وعندئذ حذفت منها مادتا اللغة العربية والدين الإسلامى .

ثامناً : أن المدارس الباقية فى طريقها إلى هذا المصير البائس لأن الوسائل التى اتبعت بشأن المدارس الثلاث ماضية فى طريقها ، وقد تركت البعثة الحبشة ومدرسة رابعة تلاقى مصيرها .

تاسعاً : أن إحدى المدارس الباقية طلبت من المعارف أن تسمح لبعض المدرسين بالحبشة أن يقوموا بتدريس بعض العلوم فى أثناء فراغهم ، نظراً لحاجة المدرسة إلى بعض المدرسين الأكفاء ، ولكن المعارف الحبشية رفضت هذا الطلب .

عاشراً : أن الكتب العربية لا يسمح بدخولها إلى أثيوبيا ، ولا تداولها ، أما الجرائد والمجلات العربية فيسمح بدخولها تحت المراقبة الشديدة .

هذه هى الحقائق المفجعة فى القرن العشرين ، وهذه هى الأحوال التى يعيش فى ظلها خمسة وستون فى المائة من سكان الحبشة ، لا لسبب إلا أنهم مسلمون .

فإذا أضفنا إليها ما علمته عن ثقة من أن المسلمين محرومون من وظائف الدولة جميعاً فى الحكومة الحبشية ، ومن الخدمة العسكرية كى لا يكون منهم جنود ، وأنهم إلى عهد قريب جداً كان المدين المعسر منهم يصبح رقيقاً يباع ويشترى إذا كان دينه لمسيحى ، ولم تبطل هذه الشناعة إلا على يد الطليان عام ١٩٣٦م !!

إن أثيوبيا ليست وحدها فى هذا السياق .. فى أكثر البلاد الأفريقية تعامل الأغلبية المسلمة هذه المعاملة ، وتهدر دماء وحقوق هذه الأغلبية فى أكثر من دولة ..!!

فلماذا لا يصحو ضمير العالم إلا على قرع الأجراس .. بينما يغط هذا الضمير فى نوم أهل الكهف عندما تجأر المآذن بطلب النجدة والصراخ ..؟!

تقوم حركة إسلامية .. دستورية .. حزبية .. فى تركيا فتصيح صحف الغرب : يا للكارثة !! .. يا للرجعية !! .. يا للخطر !! ..

ويرتفع صوت الكنيسة الكاثوليكية فى بولندا .. فتصبح صحف الغرب : ما أعظم اليقظة الكاثوليكية .. إنها هى التى حفظت شخصية الشعب البولندى ألف سنة !

ويقع انقلاب عسكرى فى تركيا ، يلغى الأحزاب والبرلمان ويضع الزعماء فى السجن . ويحاكم بعضهم بتهم رسمية منها بالنص : بدء الخطب العامة بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » إنهم ينسبون كذباً إلى المسئولين أنهم يقيمون الصلاة وإن برنامجهم يدعو إلى إعادة متحف أيا صوفيا مسجداً كما كان .. فتقدم صحف الغرب الانقلاب العسكرى .. والأحكام العرفية .. على أنه كان عملاً راقياً ، ومهذباً ، وضرورة لا مفر منها .. وإنقاذاً لتركيا من الدمار ..؟! .

وتقوم الدولة فى بولندا بانقلاب عسكرى ، وتعلن الأحكام العرفية ، فتقوم الدنيا وتتكهرب الموقف الدولى ، ويتحدث ريجان كل يوم شارحاً

كيف أنه لا ينام الليل لأن شعب بولندا يعيش تحت الأحكام العرفية ، ويمنع المال والطعام عن شعب بولندا وحكومته [١] ؟!

ألم أقل لكم :

بأن المسلمين يعيشون خاج نطاق القانون الدولى وخارج نطاق الضمير الدولى ؟!

ترى لو كان المسيح حياً بيننا إلى اليوم .. ماذا كان يقول لهؤلاء المرجفين بالباطل ؟ هؤلاء الذين يرون القشة فى أعين الغير ، ويتعامون عن الخشبة التى فى أعينهم ..؟!

الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون

فإنكم تعشرون النعنع والشبت والكمون وتتركون أثقل ما فى الناموس وهو العدل والرحمة والإيمان ..

كذلك أنتم يرى الناس ظاهركم مثل الصديقين وأنتم من داخل ممتلئون رياء ونجاسة ..

فإنكم تغلقون ملكوت السموات فى وجوه الناس فلا أنتم تدخلون .. ولا الداخلين تتركونهم يدخلون .. !! [٢] .

★ ★ ★

---

(١) أحمد بهاء الدين : الأهرام القاهرية .

(٢) إنجيل متى : الإصحاح الثالث والعشرون .

الحلقة الثالثة والأخيرة من هذا الحوار

* بيان الجمعيات الاسترالية الإسلامية ..
* حوار حول هذا البيان ..
* أمثلة من إضطهاد المسيحيين للمسلمين ..
* ذاكرة الشعوب الأوربية ضعيفة ..
* موقف الحضارات القديمة من الرق .
* موقف الإسلام من الرق .
* اتصال أوربا بإفريقيا مأساة إنسانية .
* كينتا كونتى .. وقصة الجذور . .
* الفلاسفة ذوو القلوب السوداء . .
* حزب بريطانى جديد ضد السود والملونين .
* الإسلام ونظرته الإنسانية إلى السود.
* المساواة المطلقة فى الإسلام .
* ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً .. ، .. ، كيف ؟
* « فرتونة » السوداء والخليفة عمر بن عبد العزيز.
* مثل من حضارتنا : إله واحد .. لكل البشر ..

بيان الجمعيات الإسلامية الإسترالية

لم أكد أتهيأ للانصراف من المسجد متجهاً إلى محطة القطار Central Station فى طريقى إلى أشفيلد Ashfield حتى اعترضنى السيد بيتر Peter والسيد ماكدونالد Makdonald ومعهما الآنسة « كاترين » المتخرجة من جامعة أكسفورد ، وهم يلوحون بإحدى الصحف .

قال السيد ماكدونالد :

« هل قرأت هذا البيان الذى أصدرته الجمعيات الإسلامية الأسترالية ؟

كان هذا البيان منشوراً فى صحيفة (التلغراف) [1] التى تصدر باللغة العربية فى مدينة سيدنى باستراليا .. وفى هذا البيان الذى نشرته هذه الصحيفة تقول الجمعيات الإسلامية الاسترالية ما نصه بالحرف الواحد :

فى صباح الخميس الثالث من شهر إبريل « نيسان » سنة ١٩٨٠ أذيع بيان باسم الكنيسة الأورثوذكسية فى سيدنى عما يقال بأنها أحداث وقعت فى مصر ضد الأقباط ، وإذاعة هذا البيان على النحو الذى أذيع به تثير ضمير أى إنسان ينتسب إلى الإنسانية وينسب إلى شعب مسلم عريق كالشعب المصرى تهماً باطلة وافتراءات ظالمة .

أولاً : لأن هذا الشعب المصرى لم يعرف فى تاريخه كله شيئاً من هذا التعصب وكانت مصر ولا تزال ملجأ لكل لاجئ ومضطهد .

ويكفى مصر فخراً أنها كانت الملجأ المختار للسيد المسيح عليه السلام وأمه السيدة مريم حين لجأ إلى مصر فراراً من المؤامرة التى دبرت ضده منذ ألفى عام .

ثانياً : كان دخول الإسلام إلى مصر منذ حوالى ألف وأربعمائة سنة هو طوق النجاة ، وسفينة الخلاص للمسيحيين المصريين ، الذين عانوا على يد

---

(١) عدد الجمعة ١١ / ٤ / ١٩٨٠ .

إخوانهم فى العقيدة .. من الرومان أهوالاً بعد أهوال ، فلما استتب للمسلمين الأمر بعد هزيمة الرومان ، نعموا بالأمن والحرية والكرامة التى افتقدوها طوال الحكم الرومانى المتسم بالتعصب والإذلال .

ثالثاً : ولما كان الإسلام يحترم السيد المسيح كنبى ورسول من الله ، ويعتبر الإيمان برسالته ونبوته كالإيمان برسالة ونبوة محمد عليه السلام ، ويؤكد الإيمان بالإنجيل الذى أنزل على المسيح إيمانه بالقرآن ، فقد قرر الإسلام من المبادئ والشرائع ما يضمن للمسيحيين الحرية الكاملة فى ممارسة شعائرهم واحترام عقائدهم ، والحفاظ على أموالهم وحماية أعراضهم وأرواحهم ، واعتبر العدوان على مسيحى أو يهودى عدواناً على الإسلام وانتهاكاً لحرمة القرآن .

رابعاً : لقد نعمت كل الأقليات الدينية فى الدولة الإسلامية وفى مصر خاصة بكافة الحقوق التى لم تتوفر لهم فى الدولة الرومانية المسيحية ، وشاركوا إخوانهم المسلمين فى الحياة العامة ، ولم يفرق الحكام المسلمون بين المسلمين وغير المسلمين أية تفرقة ..

وقد اعترف بهذا الأنبا شنودة بطريرك الكنيسة الأورثوذكسية أكثر من مرة ..

خامساً : إن الجالية الإسلامية فى استراليا تدعو كل عادل ومنصف أن يقرأ تاريخ الأقليات الدينية فى الدولة الإسلامية ، وسيرى هؤلاء المنصفون العادلون أن هذه الأقليات بلغت من الجاه والسلطة فى بعض مراحل التاريخ مكاناً يفوق مكانة المسلمين فى الحكم والسلطة ، ولم تقل الأغلبية الإسلامية الساحقة إن هناك اضطهاداً وقع ضدها من الأقلية الدينية .

سادساً : لم يسمع فى مصر فى القديم والحديث ، أن مسلماً اعتدى على غير مسلم بسبب دينه أو عقيدته ، ولم يسمع ولن يسمع أن مصرياً اعتدى على شرف امرأة لا تدين بدينه ، إن المسلم - أى مسلم - مهما

كانت ثقافته الدينية يعلم علم اليقين أن حرمة العرض مصونة مقدسة ، لمسلمة أو غير مسلمة ، وحتى لو كان إنساناً غير متدين ، فإن التقاليد الموروثة فى شعب كالشعب المصرى تستبعد حدوث مثل هذه الجريمة ، فكيف إذا كان من ينسب إليهم هذا العمل ممن يوصفون بـ « التعصب الدينى » ؟ إن التعصب وإن كان شيئاً مرذولاً إلا أنه فى مثل هذه الحالة يقف شاهداً كدليل براءة من هذه التهمة ..

سابعاً : لماذا لا يثار هذا الكلام إلا من بعض مسيحيى مصر ؟!

لقد عاش فى مصر مسيحيون من كل بلاد الدنيا ، وهنا فى استراليا يوجد الألوف من الإخوة اليونانيين والإيطاليين والأرمن الذين هاجروا إليها من مصر ، فهل نقل عن أحدهم شىء مما أذيع هنا ضد الشعب المصرى المسلم ؟

إننا نعلم أن الكثيرين منهم يحنون شوقاً كلما ذكر اسم مصر أمامه ويتمنى أن يعود إليها فى أقرب فرصة .

ثامناً : إنه من الملاحظ أن مصر قد تعرضت منذ عشر سنوات لمثل هذه الافتراءات التى ليست فى صالح أحد ، فهى افتراءات تسىء إلى المسيحى كما تسىء إلى المسلم ، وهى فى النهاية لاتخدم ديناً ولا طائفة ولا تحقق سلاماً ولا محبة ، وتهدم جسور التعاون والألفة ، ولن يستفيد منها سوى « الشيوعية » التى تسعى لهدم الديانات السماوية السمحة .

تاسعاً : إن الجالية الإسلامية الاسترالية حريصة كل الحرص على البقاء خارج هذه المؤامرات التى تستهدف وحدة الصف والكلمة ، وتملأ النفوس بالحقد والكراهية ، فليس من مصلحة أى طرف أن ينقل إلى استراليا - البلد الذى اخترناه مهجراً - أن ينقل إليها بذور الفتنة ويزرع فيها أشواك الحقد والكراهية ، بل يجب أن نكون جميعاً إخوة ونعمل يداً واحدة لبناء صرح الإخاء والمحبة وتوطيد دعائم الأمن والاستقرار فى استراليا .

حوار حول هذا البيان

قلت للآنسة « كاترين » والسيدين بيتر وماكدونالد :

– هل قرأتم ما فى هذا البيان بدقة ؟

– لقد ترجم لنا من العربية إلى الإنجليزية .. وقد تعرفنا على بعض اليونانيين والإيطاليين الذين عاشوا فى مصر قبل هجرتهم إلى استراليا فأكدوا ما فيه كلمة .. كلمة .

قلت للآنسة كاترين والسيدين بيتر وماكدونالد :

– ولكن الشئ المؤسف أن الناس هنا .. بل وفى معظم بلاد أوربا وأميركا لا يعرفون عن هذه الحقائق شيئاً ..

فالإسلام « الضحية » والإسلام « المفترى عليه دائماً » تحاول بعض الدوائر الكنسية والسياسية تصويره بصورة الوحش المتعطش للدم وتحاول تصوير المؤمنين به بصورة الهمج المتوحشين فى معاملة غير المسلم .

إن عندنا مثلاً يقول : « رمتنى بدائها وانسلت » أى وصفتنى بما فيها من عيوب ونقائص ، ثم وقفت تباهى بنقائها وطهارتها التى تعلم يقيناً أنه زيف وفجور فى الواقع .

وحالنا نحن المسلمين مع أكثر دول الغرب ، ومع أكثر غير المسلمين هو حال هذه المرأة التى يضرب بها هذا المثل .

إننى لم أشأ أن أفتح الملفات القديمة فى حوارنا السابق عن الإسلام والأقليات الدينية ، لقد ضربت مثلاً واحداً بأحوال المسلمين فى الحبشة .. بينما الأمثلة فى هذا المجال كثيرة لا تعد ولا تحصى .

أمثلة من اضطهاد المسيحيين للمسلمين

إننى لم أتكلم عن إبادة المسلمين فى الأندلس ..

ولم أذكر شيئاً عن محاكم التفتيش ..

أما الحروب الصليبية فأنتم تعرفون عنها الكثير جدا ..

ولكن أشير إلى مثل واحد من الأمثلة المعاصرة .. سأقول لكم ماذا فعلت فرنسا فى الجزائر ؟

وماذا فعلت إيطاليا فى طرابلس .. الغرب ؟

بعد احتلال فرنسا للجزائر أعلن قائد الغزو الفرنسى « روفيجور » رغبته فى تحويل المساجد إلى كنائس .. ثم قال :

إنه يلزمه أجمل مسجد فى المدينة ليجعل منه معبداً لإله المسيحيين وطلب إلى أعوانه إعداد ذلك فى أقرب وقت ..!

ثم أشار إلى مسجد « القشاوة » أجمل مساجد الجزائر وأمر على الفور بتحويل المسجد إلى كنيسة ..!!

وفى الميعاد المحدد تقدمت إحدى بطاريات الجيش وأخذت أهبتها للعمل ، وخرجت من بينها فرقة من سلاح المهندسين فهاجمت المسجد بالفئوس والبلط ، وإذا بداخل المسجد « ٤٠٠٠ أربعة آلاف » مسلم اعتصموا جميعاً خلف الأبواب دفاعاً عن المسجد .

فاندفعت نحوهم القوة العسكرية فدحرتهم بالسناكى والحراب فخروا صرعى وجرحى تحت أرجل الجنود واستمرت هذه المعركة طوال الليل !!

فلما انتهى الجنود من هذا المسجد تحولوا إلى مسجد « القصبة » الغنى بالذكريات عن الإسلام .. ففعلوا به ما فعلوا بالمسجد السابق .. !!

تم اصطف الضباط والجنود بعد ذلك لإقامة قداس ابتهاجاً بهذا الفوز العظيم فى أكبر المعارك .. !!

وقبل أن يخرج الجنود وقف « بوجو » سكرتير الحاكم يخطب ويقول من فوق منبر المسجد :

إن آخر أيام الإسلام قد دنت .. وفى خلال عشرين عاماً لن يكون للجزائر إله غير المسيح .. ؟ !!

ونحن إذا أمكننا الشك فى أن هذه الأرض تملكها فرنسا ، فلا يمكننا أن نشك على أى حال أنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد .. !!

إن إيطاليا كان تحمل الأسير المسلم فى الطائرة ثم يسأل من نبيك ؟

فإذا قال : محمد .. ألقى به من الطائرة بعد أن يقال له :

ليأت محمد ويخلصك .. !!

إننى كما قلت لا أريد نبش القبور .. ولا فتح الملفات .. فتاريخ الغرب وشعوبه مع الإسلام يسود وجه الشمس ، وإذا كان « القرآن » يقرر بأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، فنحن كمسلمين نرحب بنسيان جرائم الآباء وابتداء صفحة جديدة من الحب والإخاء بين الأبناء .. !!

سؤال من الآنسة « كاترين » :

لقد حضرنا الحلقتين السابقتين من هذا الحوار ، إننا - كما تعلم - لم نتكلم طوال هذا الوقت الذى استغرقته هاتان الحلقتان ..

لقد تكشفت لنا حقائق مثيرة .. وظهر علينا الإسلام فى صورة تتألق بالنبل والطهارة ..

غير أنى أستأذنك - ويوافقنى فى ذلك - السيدان بيتر وماكدونالد فى سؤالين محددين :

السؤال الأول : عن الإسلام وموقفه من الرق ؟

والسؤال الثانى : عن القرآن ، وهل قسم الناس إلى درجات تختلف باختلاف الرزق ، والجنس ، والعرق .. ؟

ذاكرة الشعوب الأوربية ضعيفة

ما كادت الآنسة « كاترين » تفرغ من توجيه سؤاليها السابقين حتى سمع فريق الحوار بالمناقشة فانضموا جميعاً إلى هذه الحلقة ، وعادت « ربما » كما كانت إلى عادتها القديمة .. !!

- ماذا تقولين يا آنسة « كاترين » ؟ لقد خطرت ببالنا هذه الأسئلة ..

غير أننا لم نجد وقتاً لطرحها على بساط البحث والمناقشة ..

وهنا رفعت يدى بالموافقة والعودة إلى الجلوس استعداداً لبدء هذه المعركة ..

لم أكن متحمساً لاستئناف هذا الحوار ؛ ذلك لأن القضايا المطروحة للمناقشة هذه المرة تمس الشعب الاسترالى مساً عنيفاً .

فقد دخلت استراليا تاريخها الحديث عن طريق الجريمة ، وعن طريق الاسترقاق وحروب الإبادة ، وهو نفس الطريق الذى سار فيه الشعب الأمريكى ضد الهنود الحمر فى الولايات المتحدة ..

غير أنى أيقنت بعد تجربة طويلة أن الشعوب الأوربية - رغم ما تتمتع به من رخاء ورفاهية وديمقراطية وحرية - أيقنت أن ذاكرة هذه الشعوب ضعيفة بالنسبة لقضايا الإنسان والحرية ، وأنها لا ترى أبعد من مواطئ أقدامها أو مصالحها فى معرض الحوار والمناقشة ..

أذكر حين سافرت إلى كمبردج Cambridge عام ١٩٦٩م أنى قد التقيت فى المعهد الذى كنت أدرس فيه بشاب سويسرى يعمل مهندساً .. هذا الشاب المهندس المتخرج فى الجامعة سألنى يوماً :

- من أى البلاد أنت ؟

- من مصر .

- مصر ؟ أين هى ؟

وبعد حوار طويل صاح قائلاً :

آه مصر التى تحارب إسرائيل .. لقد عرفتها الآن .. !!

لقد صعقت من هول المفاجأة .. مصر التى يعرفها الناس منذ آلاف السنين ومصر ذات التاريخ العريق منذ فجر الحضارة .. وفى كل الكتب المقدسة .. لا يعرف عنها هذا المهندس السويسرى واسمه « كاسبا Kasba » إلا أنها الدولة التى تحارب إسرائيل التى لم يكن قد مضى على إنشائها فى هذا الوقت عشرون سنة .. !

ألم أقل إن هؤلاء القوم محدودو الرؤية والبصيرة .. وأنهم لا يرون أبعد من مواطئ أقدامهم ومصالحهم فى معرض الحوار والمناقشة ؟

غير أنه لم يكن خيار فى الاعتذار عن هذه المواجهة ، ولم يكن هناك مفر من الإجابة على هذين السؤالين اللذين نختم بهما هذا الحوار وهذه المناقشة .

موقف الحضارات القديمة من الرق

قلت للآنسة « كاترين » والسيدين « بيتر وماكدونالد » :

لقد كان الرق نظاماً طبيعياً عند اليونان وقد أقره فلاسفتهم جميعاً ، بل إن أفلاطون اعتبره عملاً ضرورياً لا يمكن الاستغناء عنه ، وكان قاسياً فى النظام الذى سنه لعقاب الأرقاء فيما يسمى « الجمهورية الفاضلة » التى كان يحلم بها ..

ومن رأيه أن الرحمة إذا وجبت بالأرقاء فليس لأنهم أناس يستحقون الرحمة ، بل لأنهم فقراء أخساء لا يليق بالأحرار أن ينزلوا إلى عقابهم وإيذائهم .. !

وقد اشتركت الحضارات القديمة كلها فى هذه الجريمة ، فالقانون الرومانى - الذى لا يزال معمولاً به فى أوربا - كان يرى الرق شيئاً طبيعياً ، وكان يبيح للدائن أن يبيع مدينه إذا عجز عن الوفاء ، بل كان الرومان يعدون الأسرى والسبايا وسكان البلد المفتوح ملكاً للفاتح يتصرف فيهم كيف يشاء ، فله أن يقتلهم ، ومن حقه أن يستعبدهم ، ومن حقه أن يبيعهم ..

كذلك كان النظام فى بلاد الفرس ..

وفى الهند كان القانون يقسم الناس إلى أربع طبقات .. فى قمتها البراهمة وفى قاعها « الشودر » أو المنبوذون .

أما عند اليهود فقد عرفوا بهذه النزعة الهمجية .. فهم يرون أن جميع الناس - ما عدا اليهود - إنما خلقهم الله ليكونوا فى خدمة اليهود .

وكان الإسرائيليون يسترقون جميع النساء والأطفال فى البلد الذى

يغلبونه .. أما الرجال فقد كانوا يضربون رقابهم بحد السيف ويفنونهم جميعاً كما أمرتهم الكتب التى يقدسونها .

وفى سفر التكوين : أن حام بن نوح .. وهو كنعان كان قد أغضب أباه .. لأن نوحاً سكر يوماً .. ثم تعرى وهو نائم .. فأبصره حام كذلك ، فلما علم نوح بهذا بعد استيقاظه غضب ولعن نسله الذين هم كنعان .. أى العرب .. أو الفلسطينيين .. !!

وقال : ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته .. وليكن كنعان عبداً لهم .. وبذلك تأكد الاعتراف بالرق فى كتبهم التى يرون قداستها ..

وبما أن المسيح قد جاء ليكمل الناموس .. أى الشريعة اليهودية ولم يجئ لينقضها ، فقد أقرت المسيحية الرق الذى أقره اليهود من قبل .. ولم يجئ فى الإنجيل نص واحد يحرمه أو حتى يستنكره .

بل إن بولس الرسول قال فى رسالته إلى أهل « أفسيس » الإصحاح السادس :

« أيها العبيد .. أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم . كما للمسيح ، لا بخدمة العين كمن يرضى الناس ، بل كعبيد للمسيح ..

كذلك فعل القديس بطرس .. ثم جاء توماس الإكوينى الذى مزج رأى الدين بالفلسفة فلم يعترض على الرق بل زكاه لأنه حالة ضرورية ..

بل نصح القديس « أزيدوروس » الأرقاء ألا يطلبوا الحرية ، حتى لو أمرهم سادتهم بذلك ، لأن البقاء فى العبودية يخفف عن العبد الحساب يوم القيامة ، وأن المساواة التى تعنيها المسيحية ليست هنا بل فى مملكة المسيح السماوية .. !!

وفى معجم « لاروس » وهو معجم فرنسى كتبه أساتذة مسيحيون يقول بالنص : « لا يعجب الإنسان من بقاء الرق واستمراره بين المسيحيين إلى

اليوم ، فإن رجال الدين المسيحى يقرون بصحته ويسلمون بمشروعيته ، ولم يثبت مطلقاً أنهم استنكروه أو طالبوا بإلغائه » .

وفى قاموس الكتاب المقدس للدكتور « جورج يوسف » تأكيد لما جاء فى معجم لاروس وتكرار لكل ما قاله وما جاء فيه .

ولقد حدث منذ عشر سنوات أن قامت الكنيسة بأغرب عملية اختطاف واسترقاق .. وكان لها ضجة عالمية ..

فقد ثبت أن الكنيسة الكاثوليكية قامت بحملات منظمة لبيع وشراء الفتيات من ولاية كيرالا الهندية .. وحين أجرى التحقيق اعترف الكاردينال بأن هذه العملية كانت تتم بعلم البابا ورعايته .. ؟!!

عندما جاء الإسلام كان الرق كما يقول الفيلسوف الألمانى « جوتة » « حكمة » فى رأى بعض الفلاسفة .. وضرورة كما يزعم الطغاة والجبابرة .. وقدراً كما كان يتكلم المتحدثون باسم الدين .. كانت هناك عدة مصادر لهذا الاسترقاق الذى اصطدم الإسلام بوجوده ..

المصدر الأول : الحرب بجميع أنواعها ، فكان الأسير فى أية حرب أهلية أو خارجية يسترق ويستعبد .

المصدر الثانى : القرصنة أو الخطف ، فكان ضحايا هذه العمليات الهمجية يسترقون ويفرض عليهم الرق .

المصدر الثالث : ارتكاب بعض الجرائم كالزنا والقتل والسرقة ، فكان يحكم على مرتكب واحدة منها بالرق ، إما لمصلحة الدولة أو لمصلحة المجنى عليه .

المصدر الرابع : عجز المدين عن دفع دينه . فكان يحكم عليه بالرق لصالح الدائن ، وقد كان هذا الاسترقاق معمولاً به فى الحبشة مع المسلمين وحدهم .

المصدر الخامس : سلطة الوالد على أولاده ، فكان يباح له أن يبيعهم فى حالة الفقر .. وكذلك بيع الزوجات ، وكان موجوداً إلى عهد قريب فى أوربا .. فقد حاول رجل إنجليزى بيع زوجته سنة ١٩٣١م ، وحين رفع الأمر إلى المحكمة رفضت البيع .. ثم قالت : « إن هذا القانون أبطل .. !! »

المصدر السادس : بيع الرجل نفسه لرجل آخر لقاء ثمن معين ..

المصدر السابع : تناسل الأرقاء فكان ولد الأمة يولد رقيقاً حتى لو كان أبوه حراً .

وكان هذا النوع من الرق مصدراً واسعاً للأرقاء فى هذا العصر .

موقف الإسلام من الرق

فماذا فعل الإسلام :

كان أول ما فعل أن أبطل وألغى خمسة أنواع من الاسترقاق .. وتريث بالنسبة لنوعين فقط من أنواع الرق .. هما : رق الحرب ، ورق الوراثة ..

تريث بالنسبة لهذين النوعين فقط جرياً على عادته فى علاج الأمور بالتدرج خطوة خطوة .. كما فعل مع الخمر .

ثم فرض بعد ذلك على هذين النوعين من الرق كثيراً من القيود التى تقضى عليهما فى نهاية الأمر ..

بالنسبة لرق الوراثة قرر الإسلام أن الأمة التى تلد ولداً من سيدها يصبح هذا الولد حراً على الفور متى اعترف به السيد ..

أما بالنسبة لرق الحرب فقد قرر الإسلام أن أسرى الحرب بين طائفتين مسلمتين لا يسترقون أبداً فلا يجوز لمسلم أن يسترق مسلماً .

أما الأسرى الذين يؤسرون فى حروب بين المسلمين وغير المسلمين ، فقد قرر الإسلام :

أنه لا يصح استرقاق هؤلاء .. إلا بشروط أهمها أن تكون هذه الحرب حرباً شرعية ، أى يجيزها الإسلام ، فإذا كانت هذه الحرب مما لا يجيزه

الإسلام فلا استرقاق لأحد من المأسورين .. وحتى لو كانت هذه الحرب مما يجيزه الإسلام ، وكان الطرف الآخر هو المعتدى فإن الاسترقاق ليس شيئاً حتمياً بل يجوز للإمام أن يطلق سراح الأسير بدون فدية أو بفدية ، أو نظير عمل يقوم به - كما حدث فى بدر - أو فى نظير أسرى من المسلمين عند العدو .

والقرآن لم يتعرض لكلمة الاسترقاق أيضاً ..

﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء ﴾ [محمد : ٤]

وبهذا يتبين ما فعله الإسلام حيال مصادر الرق ، لقد قضى عليها ما عدا اثنين .. ثم قيد هذين الاثنين بقيود تقضى عليهما فى النهاية ..

هل هذا فقط هو كل ما عمله الإسلام ؟

لقد فتح الإسلام أمام الرقيق أبواب الحرية ، وأتاح لهم فرصاً كثيرة .. مثلاً إذا قال السيد لعبده أنت حر .. حتى على سبيل المزاح ، فإن العبد يصبح حراً .. حتى لو كان هذا السيد فاقداً للرشد ..

ومثل آخر .. إذا جرى على لسان السيد كلمة « تدبير » أى الوصية بتحرير العبد بعد موت سيده .. فإن هذا العبد يصبح حراً بعد موت السيد حتى ولو كان السيد مازحاً .. أو لاهياً .

ومن أسباب العتق أن يأتى السيد من جاريته بولد يعترف ببنوته فإن هذا الولد يعتبر حراً من يوم ولادته ، وتصبح أمه حرة بمجرد وفاة السيد .

ومن أسباب العتق فى الإسلام « المكاتبة » بأن يتفق السيد مع عبده على مبلغ معين يسدده له بعدها يصبح هذا العبد حراً .

ولتأكيد أن الإسلام شرع العتق ولم يشرع الرق .. فإن جزءاً من ميزانية الدولة خصص لمساعدة الأرقاء فى تحرير أنفسهم :

﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل** ﴾

وقد سأل جريج عطاء بن رباح :

أواجب على إذا طلب منى مملوكى أن أكاتبه ؟

فقال عطاء : ما أراه إلا واجباً .. ثم قرأ قول الله تعالى :

﴿ **والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً** ﴾ .

هل اكتفى الإسلام بذلك ؟ لازالت هناك وسائل أخرى ..

لقد عمد الإسلام إلى طائفة كبيرة من الجرائم والأخطاء وجعل كفارتها تحرير الأرقاء .. ومن هذه الجرائم والمخالفات ما يأتى :

أولاً : كفارة القتل الخطأ : ﴿ **ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة** ﴾

ثانياً : الحنث فى اليمين : ﴿ **لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة** ﴾

ثالثاً : كفارة الظهار[1] : ﴿ **والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ..** ﴾

رابعاً : جعل الإسلام عتق العبيد وتحريرهم من أعظم القربات عند الله حتى كان الرسول ﷺ يضرب به المثل فى الحث على الصالح من الأعمال .

من فعل كذا فكأنما أعتق رقبة ، أو يكون ثوابه عند الله كثواب من أعتق رقبة ..

---

(١) الظهار هو أن يقول الزوج لزوجته أنت على كظهر أمى ، فإن الزوجة فى هذه الحال تحرم على الزوج حتى يكفر عن يمينه كما هو وارد فى نص الآية .

وماذا أيضاً .. ؟

لقد سن الإسلام من الشرائع والقوانين لحماية الأرقاء ومعاملتهم – فى حالة عدم تحريرهم – ما يكفل لهؤلاء الأرقاء حياة أكرم وأحسن من حياة كثيرين ممن يسمون بالأحرار فى هذا العصر ..

يقول النبى ﷺ : « لقد أوصانى حبيبى جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم » .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد »

وأمر النبى أن ينادى الرقيق بألفاظ لا تجرح مشاعرهم ولا تخدش كرامتهم : « لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى ولا يقل المملوك ربى وربتى وليقل المالك فتاى وفتاتى وليقل المملوك سيدى وسيدتى ، فإنكم المملوكون والرب عز وجل .. هو المالك » ..

ورأى النبى رجلاً على دابة وغلامه – أى عبده – يسعى خلفه فقال :

« يا عبد الله ، احمله خلفك ، فإنما هو أخوك روحه مثل روحك »

يقول فاندبرج : لقد وضع الإسلام قواعد جليلة للرقيق تدل على ما كان ينطوى عليه محمد ﷺ من شعور إنسانى نبيل يناقض كل المناقضة تلك الأساليب التى كانت تتخذها إلى عهد قريب شعوب تدعى أنها تمشى فى طليعة الحضارة .

لهذا كان كثير من الرقيق يفضل حياة الرق فى ظلال هذه المبادئ على الحرية الوهمية فى بلاد وأمم تسترق شعوبها بالجملة .

هذا هو موقف الأديان .. وموقف الإسلام ..

اتصال أوربا بأفريقيا مأساة إنسانية

فماذا فعلت أوربا ..؟

عندما اتصلت أوربا بأفريقيا كان هذا الاتصال مأساة إنسانية عرضت سكان هذه القارة لليل طويل استمر خمسة قرون متوالية .

مأساة اشتركت فيها كل شعوب أوربا وبخاصة الأسبان والبرتغال والإنجليز .. كان يتم اصطياد الرقيق من سواحل أفريقيا بعد إشعال النار فى الأكواخ التى يعيشون فيها .. كان يموت فى عملية القنص جماعات كثيرة ، وكان ثلث الباقين يموت أثناء عملية الشحن أثناء الرحلة ، أما من كانوا يموتون فى المستعمرات فلا حصر لهم .

لقد دخل مستعمرة جامايكا ١٨٢٠م حوالى ٨٠٠,٠٠٠ ثمانمائة ألف .. مات منهم نصف مليون فى سنة واحدة .. !

إن بريطانيا اختطفت حوالى ثلاثة ملايين من شواطئ أفريقيا .. وكانت القواعد التى يتجمع فيها هذا الرقيق قبل تصديره إلى أمريكا فى ليفربول ولندن وبريستول ولانكشاير ، وكانت الملكة اليزابيث الأولى تشارك فى هذه العملية ، وكانت شريكة لـ « جون هوكنز » أكبر تاجر رقيق فى تاريخ العالم ، وقد أنعمت عليه الملكة بلقب « سير » وجعلت شعاره رقيقاً يرفل فى القيود والسلاسل ..!

ومن الأشياء المضحكة أن السفينة التى أعارتها الملكة لجون هوكنز اسمها « يسوع » وقد طلبت الحكومة الإنجليزية من رجال الدين المسيحى الفتاوى التى تبيح لهذه الحكومة استرقاق البشر ..

فقام رجال الدين بالمطلوب .. وكتبوا ما جاء فى أسفار العهدين القديم والجديد من إباحة استعباد البشر ..

فى الحضارة الأوربية لم يكن للرقيق أية حقوق ، بل العكس .. فقد صدر قانون يقول :

من اعتدى من الرقيق – أقل اعتداء على أحد من السادة يقتل ، وإذا أبق العبد أى هرب قطعت أذناه ورجلاه وكوى بالحديد والنار ، وإذا هرب للمرة الثانية قتل .. أما السيد فإنه لا يعاقب ولو قتل ألف زنجى ..!

وقد اشتركت الكنيسة فى هذه المأساة بصورة أخرى .. إنها لم تكتف

بإصدار الفتاوى التى تبيح استرقاق الأفريقى ، بل كانت ترسل القساوسة والكهان إلى موانئ الشحن والتصدير ليباركوا هؤلاء المساكين ، ويخلصوا أرواحهم الشريرة من التفكير فى العودة إلى بلادهم التى اختطفوا منها حتى لا يحرموا من ملكوت المسيح وكانوا يتقاضون مبلغاً معيناً من المال على كل رأس تساق إلى مخازن التصدير .. ؟!!!

قصة كينتا كونتى فى كتاب « الجذور »

هل تذكرون قصة كينتا كونتى ..؟

لقد عرض التليفزيون الاسترالى مأساته الكاملة هنا فى مدينة سيدنى ..

كينتا .. هذا هو بطل كتاب « جذور » [1] الذى يروى فيه « أليكس هيلى » قصته منذ ولد فى قرية جوفبور فى جامبيا إلى أن مات فى « تنيسى » فى أمريكا ويرويها فى مئات من الصفحات ، هى جولات شائقة فى تاريخ أفريقيا ، ولمحات سريعة عن العرب والإسلام .. وصورة بشعة عن الاستعمار الأوربى .. ويروى من خلال هذا كله قصة الحرية الإنسانية التى مرت عبر التاريخ بكل المآسى ..

أبوه اسمه عمر .. وينطقونه أمورو .. وهو اسم ثانى الخلفاء الراشدين ، وكينتا إمام المسجد فى القرية أو هو إمام القرية وزعيمها ، وكان رجلاً صالحاً ورعاً ، جاء ماشياً على قدميه عبر الصحارى قادماً من بلاده موريتانيا .. واستقر به المقام فى هذه المنطقة التى انقطع عنها المطر خمس سنوات متتالية حتى هلك الحرث والنسل ، فأخذ الرجل الصالح يصلى صلاة استسقاء خمسة أيام وليال متتالية أمضاها راكعاً ساجداً .. واستجاب الله إلى دعائه فانهمر المطر ورويت الأرض فاهتزت وربت ، وأنبتت العشب تأكله الماشية والدواب فيأكل الناس ويشربون .

---

(١) أليكس هيلى - مرجع سابق .

وأنجب عمر ولداً فهمس في أذنه قائلاً : سيكون اسمك مثل اسم جدك « كينتا » وكان من عقائدهم أن الطفل يجب أن يعرف اسمه قبل أن تعرفه أمه أو أحد من أهله لأن الاسم يوحى إليه بالصفات التى سيتميز بها طول حياته .. ولكل مسمى من اسمه نصيب .

وفى سن الخامسة دخل المدرسة أو الكتاب فحفظ سوراً وأجزاء من القرآن الكريم عن ظهر قلب .. ثم أخذ يتعلم اللغة العربية قراءةً وكتابةً وراح يعرف أشياء كثيرة من هؤلاء « الرواة » الذين كانوا يفدون إلى القرية من حين لآخر .. فيلتف حولهم أهل القرية ويستمعون إلى قصصهم حتى ساعة متأخرة من الليل ، وحتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، فينصرفون إلى المسجد لصلاة الفجر .

وكان الرواة يقولون فى قصصهم الشائق الأخاذ ، إنه قبل أن يأتى البيض إلى أفريقيا كانت هناك مملكة قديمة اسمها غانا .. وكانت فيها مدينة لا يسكنها أحد سوى الملك ، ومعه نساء الملك ، والذين يخدمون الملك ويخدمون نساءه .. وكان أشهر ملك هناك هو « الملك كابنساى » الذى كان عنده ألف حصان مطهمة بسروج وألجمة من الذهب .. وفى كل مساء كان الملك يخرج من قصره فتوقد النار فى ألف مشعل ينبعث منها الضوء الباهر فيغمر الدنيا من السماء إلى الأرض .. وكان الملك يجلس على أريكة عالية ، ويجلس قريباً من أولاده وشعورهم تلمع فيها قطع من الذهب .. ويحيط به حراسه ثلاثة آلاف من الرجال الأشداء ، على صدورهم دروع من الذهب ، وفى أيديهم سيوف من الذهب ، وهناك كلاب كبيرة أطواقها من الذهب ، تقف على الأبواب متربصة مثل الحراس الأمناء .

وكانت السيوف والدروع والأطواق مصنوعة فى تلك البلاد التى اشتهر بعض الناس فيها بحرف الصياغة والسباكة ، بينما اشتهرت نساؤها بنسج الأقمشة وصنع الملابس الموشاة بسلوك الذهب والفضة .

ويمضى هؤلاء (الرواة) الذين يعرفون كل شىء من التاريخ القديم

الذى مضت عليه مئات من فصول المطر .. أى مئات من السنين ، فيقولون إن مملكة غانا هذه لم تكن أهم الممالك فى أفريقيا ، كان هناك ما هو أغنى وأقدم منها وهى « إمبراطورية مالى » وكانت فيها مدن عظيمة أشهرها مدينة « تمبكتو » التى كانت هى مركز العلم والتعليم فى أفريقيا ، فقد كان يقيم فيها مئات من العلماء وكانت تأتى إليها من شتى الأرجاء أفواج من العلماء والحكماء يلتمسون مزيداً من المعرفة ومن العلوم .. ولم تكن هناك قرية صغيرة فى أفريقيا إلا وفيها إمام أو مدرس قد ذهب إلى تمبكتو وتعلم فيها .. وكان فى المدينة تجار كبار أثرياء بعضهم لا تجارة له إلا بيع الكتب المسطورة على الجلود والأوراق ، ويأتى الناس إليهم من شتى بقاع الأرض ليشتروا هذه الكتب والذخائر .

عندما نقرأ هذه الصفحات المسهبة فى كتاب « جذور » فلابد أن نتصور أن « أليكس هيلى » قد قرأ بعناية كتاب ابن بطوطة وغيره من الرحالة المسلمين ، فقد ذهب الرحالة العربى فى سنة ١٣٥٢م إلى مملكة مالى ووصفها بأن طولها أربعة شهور وعرضها أربعة شهور وقال فى كتابه :

« إن الزنوج هم أكثر الناس إقامة للعدل وكرهاً للظلم وإنه لا يعرف أناساً يفضلون الزنوج فى هذا المضمار ؛ فإن حكامهم لا يرحمون أحداً قام بشىء فيه خروج عن العدل ، ولهذا فإن الأمر مستقر فى بلادهم ولا يشعر المسافر أو المقيم بأى خوف من السرقة أو الاعتداء » .

وأظن أن « أليكس هيلى » قد قرأ واقتبس من كتاب « ليو الأفريقى » وهو رغم اسمه ، رحالة عربى اختطفه القراصنة وباعوه فى سوق الرقيق فى روما ثم أعتقه من اشتراه ليتفرغ لتعلم اللغات وتأليف الكتب ، فوضع فى سنة ١٥٥٠م كتابه (وصف أفريقيا) الذى قال فيه :

« فى مدينة تمبكتو عدد كبير من القضاة والأطباء والكتبة ، وقد عينهم الملك فى وظائف عالية ، وهو لا يكرم أحداً مثلما يكرم رجال العلم ،

وتجارة الكتب فى المدينة أروج وأربح من سائر أعمال التجارة الأخرى .. »

ولا شك فى أن كتاب « جذور » بكل ما لقى من ذيوع وشهرة سوف يرغب كثيراً من الناس فى أن يعرفوا تاريخ أفريقيا القديم .. تاريخ تلك القارة التى وصفها الأوربيون وهى فى أزهى عصورها بالقارة المظلمة مع أنها كانت قارة مضيئة بالعلم والتجارة والرخاء عندما كانت أوربا هى القارة المظلمة ، وليس الأوربيون والأمريكيون وحدهم هم الذين يجهلون تاريخ أفريقيا القديم ، بل إن معلوماتنا نحن العرب عن هذا التاريخ ضئيلة للغاية فقد نعرف شيئاً عن « لفنجستون و ستانلى » الذين اكتشفا منابع النيل وعن « سيسيل رودس » الذى سميت باسمه روديسيا .

ولكننا لا نعرف شيئاً عن : « اسكياس محمد الأول الأكبر » الذى بلغت امبراطورية « مالى » فى عهده (١٤٩٣م - ١٥٢٨م) أوج مجدها .. فقامت فيها الجامعة العلمية .. بل عرفت المصارف التى تقرض التجار لتذهب سفنهم محملة بمنتجات أفريقيا ومصنوعاتها إلى شتى أرجاء المعمورة حينذاك ..

ماذا حدث لهؤلاء الناس الذين كانوا على قدر كبير من الحضارة فى أفريقيا فصاروا عبيداً رقيقاً فى أمريكا ؟!!

إن أكثر من أربعة ملايين منهم قد حدث لهم ما حدث للشاب « كينتا » الذى تدور حوله قصة جذور [1] « THE ROOTS » .

الفلاسفة ذوو القلوب السوداء

والشىء المحزن .. أنه لا يزال فى هذا العصر من يطلق عليهم لقب فلاسفة ، ومن هؤلاء رجل اسمه « لونج » هذا الفيلسوف العنصرى يقول فى كتاب اسمه « تاريخ جامايكا » - إحدى دويلات البحر الكاريبى - يقول هذا العنصرى المتفلسف عن الزنوج :

(١) « الجذور » ترجمة عبد الحميد الكاتب .

« إنهم غير خليقين بالحياة .. وإنهم لا يزيدون عن القرود التى تتعلم لتأكل وتشرب .. وإن قيمتهم لا تزيد عن قيمة أية سلعة تباع فى الأسواق .. !

« وهناك قضية مشهورة عرفت بقضية السفينة « زرغ » هذه السفينة شحنت بمجموعة من المخطوفين من شواطئ أفريقيا .. كما رأينا ذلك فى قصة « الجذور » لقد حدث أن كابتن السفينة وهو فى طريق عودته إلى أميركا ألقى فى البحر بمائة وثلاثين زنجياً بحجة نقص المياه فى السفينة وحين رفعت القضية إلى المحكمة .. وأرجو ألا يخطر ببال أحدكم أن رفع الأمر إلى المحكمة كان بسبب إلقائهم فى البحر .. ولكن بسبب آخر فى منتهى القسوة والهمجية .

لقد كان تجار الرقيق ينتظرون وصول هذه الشحنة التى دفعوا ثمنها مقدماً فكيف نقصت هذه الشحنة .. ونقص العدد ١٣٠ عبداً ؟!!

إن السبب تجارى بحت لا صلة له بالشرف ، ولا بكرامة الإنسان .. ولا بحقوق هذا الإنسان الأسود الذى لا يعترف به كإنسان ..

ولهذا حكمت المحكمة ببراءة الكابتن المتوحش من تعمد إتلاف البضاعة .. بل كان عمله هذا ضرورياً للحفاظ على بقية الصفقة !!

إن رجلاً اسمه (منتسكيو) يقول عن السود :

« إنى أعتقد أن الله أحكم من أن يضع روحاً .. فضلاً عن روح طيبة فى جسم حالك السواد ..!! » .

إنها الفلسفة اليونانية والرومانية واليهودية التى لاتزال تحكم أوربا .. ولايزال العالم فى نظرها ينقسم إلى شعوب مختارة .. وإلى برابرة ..

منذ فترة ليست بالبعيدة قتل فى لندن بعض المسلمين من الهند وباكستان على يد منظمة تطالب بإخراج كل ملون من بريطانيا ..

وقبل ذلك .. قتل ثلاثون زنجياً فى لندن لنفس السبب ، وكما تقول تقارير البوليس : فإن جريمة تحدث كل ساعة ضد العرب والزنوج والمسلمين الموجودين فى لندن .

إنه لا تزال هناك لافتات فى دول الحضارة الغربية تقول : « للبيض فقط » أو تلك اللافتات التى تقول : « ممنوع دخول السود والكلاب » !!

إن القانون هناك أبيض .. ولا علاقة له بأى لون آخر ، لقد طرد وزير خارجية دولة إفريقية من أحد مطاعم نيويورك لأنه تجرأ ودخل مطعماً مخصصاً للبيض !!

لقد ضبطت فتاة أمريكية بيضاء تمشى مع فتى أسود .. إن الفتاة هى التى طلبت وأصرت أن تمشى معه .. فإذا بمجموعة من الشباب يلقون الفتى الأسود على الأرض ، ويركلونه بأحذيتهم حتى الموت ..!!

والأعجب والأغرب أن رجال البوليس كانوا واقفين بالقرب من الحادث ولكنهم اكتفوا بالانصراف بعيداً حتى لا يستعين بهم الشاب الأسود ..

ولماذا أذهب بعيداً .. ؟ هل تذكرون ما وقع هنا مع « الأبوريجنال » السكان الأصليين لاستراليا ؟

ألم يفعل أجدادكم معهم مثل ما فعله المستوطنون مع الهنود الحمر فى أميركا ؟!!

حزب جديد فى بريطانيا ضد السود والملونين

لقد قام فى بريطانيا منذ سنوات حزب يدعى « الجبهة الوطنية » (National Front) هذا الحزب يطالب بطرد كل الملونين والسود من المملكة المتحدة ، ويرى فى بقائهم خطراً على الشعب البريطانى والأمة البريطانية .

وحتى لا نتجنى على أحد فإننا ننقل نص الحوار الذى دار بين رئيس هذا الحزب ويدعى (مارتن ويستر) وبين إحدى المجلات التى تصدر فى لندن [1] :

س : ماذا تقول للذين يتهمونكم بأنكم عنصريون ؟

---

(١) مجلة الحوادث .

ج : نعم إننا عنصريون .. ونحن منظمة عنصرية ، أقولها بصراحة نعم أنا عنصرى !!

س : هل يمكن أن توضح ما تقول ؟ فالناس يعرفون أن حكومة جنوب أفريقيا حكومة عنصرية ، ويبدو أن مفهومكم للعنصرية كحزب بريطانى معترف به يتشابه مع مفهوم إخوانكم البيض فى جنوب أفريقيا .. وإن كان مفهوماً أوربياً بريطانياً .. !!

ج : لنقل إن العنصرى يؤمن بأن الشعوب المختلفة التى توجد فى العالم ، أى الشعب الأسود والأصفر والأبيض تختلف عن بعضها وراثياً ، فالشخص الأسود الذى يتزوج من سوداء لا ينتج أطفالها ذوى بشرة بيضاء .. ولهذه الشعوب المختلفة تقاليدها وثقافتها .

ونحن نعتقد أن الشعب البريطانى شعب متميز عن بقية الشعوب ، فله ثقافته المتميزة ،سيكولوجيته وتقاليده ، ونحن نريد أن نحفظ للأمة البريطانية هذه الخاصية ، فالأمة ليست الأرض والبيوت ، وإنما هى « الشعب » وعندما نتحدث عن الشعب البريطانى فإننا لا نتحدث عن الوثائق التى تمنحها الدولة للأشخاص ، وإنما عن الدم وخصائص الوراثة فى هذا الدم .. والبريطانيون هم الإنجليز والاسكتلنديون والولش ، وهم شعب واحد لأنهم أوربيون ولأنهم من جنس واحد ، فهم شعب واحد .

س : إنك تعنى البيض .. أليس كذلك ؟

ج : مارتن وبستر : ببساطة .. بلى .. نحن شعب أبيض شمالى ، ولكن الحكومة البريطانية أعطت وثائق لأشخاص من مختلف الجنسيات ، أصبحوا بموجبها بريطانيين ، أى يحملون الجنسية البريطانية ولنفرض أنك تربى قطة ، ولدت « قطيطات » صغيرة فستبقى هذه قططا إلى الأبد ، ويمكن أن تغير جنسية شخص بإعطائه (قطعة ورق) ولكن هذا لا يغير عرقه ، فالعرق يعنى الآباء والأجداد وكل ما له علاقة بذلك ..!!

س : إذن ما هو الفرق بينكم وبين النازية ؟

ج : إنى لا أعرف .. عليك أنت أن تبين لى الفرق ، وتوقف قليلاً ثم استدرك قائلاً : أعتقد أن الفرق بيننا وبينهم أنهم لم يؤمنوا بالعنصرية كما نؤمن بها نحن ، فهم يؤمنون بالسيطرة ، إنهم عنصريون ولكنهم مستعمرون ، إنهم عنصر متفوق وإن لهم الحق فى إخضاع الشعوب الأخرى ، وأما نحن فنريد المحافظة على عنصرنا ..

س : إنه اختلاف فى الدرجة .. إذن .. اقتضته الظروف ، ومرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، هو اختلاف تكتيكى إذا صح التعبير .

ج : مارتن وبستر : لا أعتقد ذلك ، يبدو أنك أنت الذى تضع هذه المعادلات على هواك .

س : إذا كانت هذه مجرد معادلات مغرضة كما تقول ، فما الذى ستفعلونه بالسود والهنود والباكستانيين ، وهم شغلكم الشاغل فى إطار تحديدكم لمعنى « المواطنة » والعنصرية ونقاء الدم والشعارات التى ترفعها النازية فى كل مكان ؟

ج : إن لهم بلادهم وقد استقلت الآن بعد أن كانت جزءاً من الإمبراطورية البريطانية ، لقد استعادوا حريتهم منا ، ليأخذوا حريتهم وليذهبوا من هنا .

س : أهذا ما تسمونه « إعادة الاستيطان » ؟

ج : نعم : لقد جاء السود بحثاً عن فرص عمل .. حسناً .. وقد آن لهم أن يذهبوا ، لقد جاء هؤلاء طوعاً واختياراً إلى بلادنا ، فنحن لسنا كالأمريكان حيث استقدم السود كعبيد للعمل فى المزارع هناك ، وأقول لك إن تسعة وتسعين فى المائة من السود الذين يقيمون فى هذه البلاد اليوم قد جاءوا بعد صدور قانون الجنسية سنة ١٩٤٨ عندما بدأت الإمبراطورية بالانهيار التام .. نعم إن غزو السود لهذه البلاد قد جاء بعد صدور قانون

الجنسية ويعود ذلك إلى توقف أميركا عن شراء السكر من مصانعنا فى جامايكا ، فهاجر هؤلاء إلى بريطانيا ، وعلى هذا الأساس يجب أن يعاد هؤلاء إلى بلادهم فوراً .. !!

الإسلام ونظرته الإنسانية إلى السود

أما الإسلام فإنه ينظر إلى الإنسانية كحديقة كبيرة تختلف ألوان أزهارها دون أن يكون للون فضل على لون .. أو لصورة فضل على صورة (1) .

استمع إلى هذا الحديث الذى يقول فيه النبى ﷺ :

« أنا سابق العرب .. وصهيب سابق الروم .. وسلمان سابق الفرس .. وبلال سابق الحبش .. »

ويقول النبى ﷺ : « لينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونون عند الله أهون على الله تعالى من الجعلان - أى الدويبة السوداء التى تكون فى الأماكن الرطبة - .

بل نقرأ : « أن أبا سفيان مر على سلمان الفارسى ، وصهيب الرومى وبلال الحبشى فقالوا : « والله ما أخذت سيوف الله من عدو الله .. »

وسمع ذلك أبو بكر فقال : « أتقولون هذا لشيخ قريش ؟

وذهب أبو بكر وأخبر النبى ﷺ بما سمع وبما قال ..

فقال النبى ﷺ لأبى بكر : « يا أبا بكر لعلك أغضبتهم ؟ إن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك ..

فأتاهم أبو بكر وقال : « يا إخوتاه آأغضبتكم ؟ »

قالوا : ما غضبنا ، يغفر الله لك ..

وكان عمر يقول : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا - يقصد بلالاً العبد السابق - »

---

(1) دكتور عبد العزيز كامل - الإسلام والتفرقة العنصرية .

وقد تزوج بلال العبد السابق أخت عبد الرحمن بن عوف « القرشي » التاجر الكبير .

وأعتق الإمام الحسين جارية ثم تزوجها فكتب إليه معاوية يقول :

« كيف تتزوج جارية ؟ »

فقال الإمام الحسين : « لقد رفع الله بالإسلام الخسيسة ووضع عنا به النقيصة »

وقد آخى النبي ﷺ بين بلال الأسود وبين خالد بن رويحة ..

وآخى بين زيد العبد السابق وبين عمه حمزة ..

وآخى بين أبي بكر وبين خارجة بن زيد ..

وزوج النبي ﷺ مولاه زيداً من ابنة عمته زينب القرشية ..

وعقد لواء الجيش لأسامة بن زيد وفيه كبار الصحابة ..

وعندما جاء المسلمون لفتح مصر وقفوا أمام حصن بابليون فأرسل المقوقس يطلب مفاوضاً من المسلمين . . فأرسل عمرو بن العاص جماعة على رأسهم عبادة بن الصامت – وكان عبادة أسود شديد السواد طويلاً ، حتى قالوا إن طوله عشرة أشبار – .

فلما دخلوا على المقوقس هابه لشدة سواده .. وقال :

نحوا عني هذا الأسود ، وقدموا غيره يكلمني .. !!

فقالوا له : إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا ..

فقال لهم : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم وكان يجب أن يكون أقلكم ؟!

فقالوا له : إنه وإن كان أسود كما ترى فهو أحسننا رأياً وعقلاً وسابقة في الإيمان ..

فقال له المقوقس : تقدم يا أسود وكلمني فإني أهاب سوادك .. !!

فقال عبادة وقد أدرك فزع المقوقس وخوفه من لونه : « إن في جيشنا ألف أسود هم أشد سواداً مني !! »

المساواة المطلقة فى الإسلام

لقد اقتص الإسلام من « ملك » لأنه ضرب السوقة ..

وحين طلب أمير المؤمنين عمر هذا الملك يسأله إن كان ضرب هذا الرجل .. اعترف بأنه فعل ذلك ، وقال :

إنه تعمد حل إزاري .. ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف

فقال له عمر : لقد أقررت فإما أن ترضى الرجل ، وإما أن أقيده منك

فقال الملك وكان اسمه « جبلة » :

ماذا تصنع بي ؟

فقال عمر : آمر بهشم أنفك كما فعلت ..

فقال الملك : وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك ..؟

فقال عمر : إن الإسلام جمعك وإياه ، فلست تفضله بشيء إلا بالتقى والعافية ..

وفي موقف آخر ..

أمر أمير المؤمنين عمر بجلد أحد القواد التاريخيين في الإسلام – وهو أبو موسى الأشعري [1] .

فقد كان مع هذا القائد جندي عرف بالشجاعة في قتال العدو ، فأعطاه أبو موسى القائد بعض حقه من الغنائم ، فرفض الجندي إلا أن يأخذ حقه كاملاً ..

فغضب منه هذا القائد ، وأمر بجلده عشرين سوطاً .. ثم حلق شعره ..

---

(١) القضايا الكبرى في الإسلام : الشيخ عبد المتعال الصعيدي .

فجمع الرجل « شعره » ثم رحل إلى عمر حتى قدم عليه ثم دخل عليه فأدخل يده واستخرج شعره .. ثم ضرب به صدر عمر وقال :

- أما والله لولا ..

- فقال عمر : صدق .. لولا النار ..

- ثم ذكر الرجل قصته مع أبي موسى وكيف حلق شعره بعد أن ضربه عشرين سوطاً لأنه رفض التنازل عن حقه .

- فقال عمر : لأن يكون الناس كلهم على صرامة هذا أحب إلى من جميع ما أفاء الله على ..

- ثم كتب « عمر » إلى أبي موسى قائلاً :

سلام عليكم .. أما بعد : فإن فلاناً أخبرني بما كان منك .. فإن كنت فعلت ذلك في ملأ من الناس فعزمت عليك لما قعدت له في ملأ من الناس حتى يقتص منك .. وإن كنت فعلت ذلك في خلاء من الناس فاجلس في خلاء من الناس حتى يقتص منك ..

ثم قدم الرجل على « أبي موسى » فقال له الناس :

اعف عنه ..

فقال الرجل : لا والله لا أدعه لأحد من الناس ..

فلما قعد أبو موسى ليقتص منه هذا الرجل رفع رأسه إلى السماء ثم قال : اللهم قد عفوت عنه ..!!

قد يبدو هذا الأمر « مقبولاً » إلى حد ما في عصرنا الحاضر ، وفي بلاد لا يفرق فيها القانون بين صغير وكبير أمام هيئة المحلفين في محكمة ..

أما حين يقع ذلك منذ أربعة عشر قرناً حين كان الملوك والأمراء يعتبرون الأرض بمن عليها من البشر ملكاً خاصاً يتصرفون فيه كما يشاءون فهنا وجه الإعجاز والعدالة في شريعة الإسلام وقانون الإسلام .

وحتى فى بلد عريق فى الديمقراطية كبريطانيا .. هل كان يقبل الناس أن يقف المارشال « مونتجومرى » أمام محكمة يواجه فيها الحكم باعتدائه على أكبر ضابط أو أصغر جندى ؟!! .

إن فضيحة « ووترجيت » لم تنل من الرئيس الأمريكى السابق « نيكسون » لأن خلفه الرئيس السابق « فورد » أصدر عفواً شاملاً عنه بعد اكتشاف هذه الفضيحة .

ولكن محمداً رسول الإسلام ﷺ يقف ذات يوم قائلاً لأصحابه :

« من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقد منه .. »

ويقول أيضاً : « إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادى : إلا إنى جعلت نسباً ، وجعلتم نسباً ، فجعلت أكرمكم أتقاكم ، فأبيتم إلا أن تقولوا فلان ابن فلان خير من فلان ابن فلان .. فاليوم .. فاليوم أرفع نسبى وأضع أنسابكم »[1] .

« ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً » .. كيف ؟

إن الآنسة « كاترين » تسأل عن القرآن وهل قسم الناس إلى طبقات تتفاوت فيما بينها باختلاف الجنس والعرق والمعيشة والرزق .. ؟

وأعتقد أنها تشير بسؤالها هذا إلى الآية الثانية والثلاثين من سورة «الزخرف» .

﴿ .. نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً .. ﴾ .

لقد فهم معنى هذه الآية على غير حقيقته ، وفسر تفسيراً بعيداً عن معناه الذى قصد به .

انظروا إلى الناس الجالسين هنا ..

---

(١) الترغيب والترهيب ج ٣ .

سلوا كل واحد عن عمله وثقافته وعن أجره الذى يتقاضاه أو راتبه ..

هل يأخذ العامل أجر المهندس ؟

وهل يحصل الطبيب على ما يحصل عليه الممرض .. ؟

وهل يحصل السرجنت Sergent أو « الرقيب » فى الجيش على ما يحصل عليه الجنرال General أو القائد .. ؟

إن هذا التفاوت بين المهندس والعامل ، أو بين الجندى والقائد ، أو بين الطبيب والممرض ، ليس تفاوتاً فى الكرامة الإنسانية ، ولا فى الحقوق أو العدالة ..

إنماهو تفاوت يختلف باختلاف المواهب ، وباختلاف طبيعة العمل بين الجندى والقائد ، وبين المهندس والعامل ، وبين الطبيب والممرض .. وطبيعة الحياة البشرية قائمة على أساس هذا التفاوت فى مواهب الأفراد ، والتفاوت فيما يمكن أن يؤديه كل فرد من عمل ، والتفاوت فى مدى إتقان هذا العمل ..

وهذا التفاوت ضرورى لتنوع الأدوار المطلوبة لخلافة الإنسان عن الله فى هذه الأرض .. ولو كان جميع الناس نسخاً مكررة ما أمكن أن تقوم للحياة فى هذه الأرض قائمة .. ولتعطلت أعمال كثيرة لا تجد من يقوم بها .

﴿ ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾

فدولاب الحياة حين يدور يسخر بعض الناس لبعض حتماً ، وليس معنى التسخير هنا الاستعلاء .. استعلاء طبقة على طبقة أو استعلاء فرد على فرد .. كلا ..

مثلاً العامل مسخر للمهندس فى المصنع ، ومسخر لصاحب هذا المصنع والمهندس مسخر للعامل ولصاحب المصنع ، وصاحب العمل أو المصنع مسخر للعامل والمهندس ..

هل يخالجك يا آنسة « كاترين » بعد ذلك شك .. ؟

وهل رضى السيدان بيتر وماكدونالد عن هذا الإيضاح والشرح ؟

« فرتونة » السوداء وعمر بن عبد العزيز

فمنذ ثلاثة عشر قرناً شكت جارية سوداء اسمها « فرتونة » إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين تقول له :

لقد تهدم جدار بيتى .. وأخشى على « دجاجى » من اللصوص ، أن يسرقوه [1] .

فكتب الخليفة إلى واليه على مصر أيوب بن شرحبيل يقول له :

إن « فرتونة » مولاة ذى أصبح قد كتبت إلى تذكر قصر حائطها .. وأنه يسرق منه دجاجها وتسأل تحصينه لها :

فإذا جاءك كتابى هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تحصنه لها ..

فلما وصله الكتاب ركب بنفسه إلى الجيزة ليسأل عن فرتونة حتى عثر على محلها .. فإذا هى سوداء مسكينة ..

فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين وحصن لها بيتها .. !

هذا ما فعله المسلمون قبل ثلاثة عشر قرناً ..

* * *

مثل من حضارتنا .. إله واحد لكل البشر

لقد سافرت إلى أفريقيا عام ١٩٦٢م وفى « تنجانيقا » أو ما تعرف اليوم باسم تنزانيا سمعت هذه القصة فى مدينة « تابورا » :

كانت هناك كنيسة يشرف عليها أحد القساوسة .. وكان لهذا القس ولد لا تزيد سنه عن الثانية عشرة ، وذات يوم قال الولد لأبيه القس :

– أبى هل هناك إله أبيض للبيض وإله أسود للسود ؟

---

(١) من روائع حضارتنا : للشيخ الدكتور مصطفى السباعى « رحمه الله » .

لقد فوجئ القس بهذا السؤال الغريب من ولده فسأله :

ماذا تقول .. ولم هذا السؤال ؟

فأجاب الولد أباه القس قائلاً :

- لقد لاحظت أن البيض يدخلون الكنيسة حين يخرج الملونون السود .. بينما لا يدخل الكنيسة أحد من السود والملونين حتى يخرج البيض .. !

ثم جذب الولد أباه من ثيابه وطلب منه أن يتبعه .. وسار الوالد القس وراء ولده مذهولاً من المفاجأة ،، وهناك وعلى بعد مئات الأمتار توقف الولد أمام بوابة مسجد - كان يوم جمعة - والمسجد ممتلئ بالمصلين عن آخره بيض .. وسود .. وملونون من العرب والهنود .. الكل يتحرك حركة واحدة إلى الله الواحد المعبود .

وهنا التفت الولد لأبيه قائلاً :

هنا إله واحد للأبيض والأسود ، وأنا أريد أن أعبد هذا الإله الذى لا يفرق بين أحد .. وأحد .. !!

ثم انفلت من يد أبيه ودخل المسجد ..

وهذا هو الإسلام .. وتلك هى شريعة الإسلام ..



فهرس الكتاب

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــــــوع الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ١٥٩٥١ / ٩٩ م

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطي شبرا القاهرة
الرقم البريدي — ١١٢٣١

دار الاعتصام
للطبع والنشر والتوزيع
٨ شارع حسين حجازي ـ القاهرة
هاتف : ٣٥٥١٧٤٨ ـ ٣٥٤٤٧٤٨ ـ فاكس : ٣٥٤٦٠٣١
ص ب : ٤٧٠ القاهرة ـ الرمز البريدي ١١٥١١

